وقفات إيمانية

في البلايا والمصائب والفتن الامتحانية

بقلم المربي

الدكتور محمد خير فاطمة

الإهداء

- إلى كل مؤمن في سوريا يعيش هذه البلايا والمصائب والفتن. ليحسن التصرف فيها.

- وإلى كل مؤمن في بلاد الإسلام تواجهه البلايا والمصائب والفـــتن. ليتعرف على أفضل سبل العلاج.

- وإلى كل مؤمن في كل زمان ومكان في هذه المعمورة وعلـــى مـــر العصور والأيام. ليكون على بينة في سلوك طريق السلامة والنجاة.

- وإلى كل عالم وداعٍ ومربٍ وإمام وخطيب ومدرس ديـــني. ليـــبين للمؤمنين الطريق المستقيم في التعامل مع البلايا والمصائب والفتن.

- إلى كل هؤلاء أهدي ما ألهمني الله عز وجل في هذه الوقفات الإيمانية التي تبين ما ينبغي فعله أمام ما يواجههم من البلايا والمصائب والفتن الامتحانية.

المؤلف

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين والمبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

ما هو الواجب الذي ينبغي أن يقوم به كل عالم وداعٍ ومربٍ وإمام وخطيب ومدرس ديني في فترة البلايا والمصائب والفتن؟

● ينبغي لكل هؤلاء أن يقوموا بالواجب الإيماني الدعوي، هذا الواجب الإيجابي تجاه دين الله وشرعه، وذلك من خلال الدروس التوجيهية والتربوية ومن خلال خطب يوم الجمعة واللقاءات المتعددة مع الناس ضمن منهج عمل يعتمد على ما يلي:

أولاً– العمل على تثبيت وتعميق إيمان الناس حيث إن هذه البلايا والمصائب والفتن كادت تودي بإيمان الكثير من الناس من وراء مجرياتها وآلامها الشديدة، ذلك لأن إيمان الناس بطبيعته كان ضعيفاً لأن أكثر الناس انشغلوا عن دينهم بأعمالهم وشهواتهم وبعدهم عن علمائهم ومربيهم، وتأثرهم بالوسائل الحديثة وما فيها من مرغبات أشغلتهم عن دينهم وأبعدتهم عن الارتباط به، مما جعل الكثير منهم يكاد أن يرتد عن دينه بسبب هذه البلايا والمصائب والفتن بكلمات تظهر ألمهم وامتعاضهم وعدم رضاهم عن ربهم، فكان لابد للعاملين في الحقل الدعوي الإيماني من تنبيههم إلى هذه الأخطاء التي قد تودي بدينهم وإيمانهم وتوضيحها لهم وإيقافهم عن جهلهم وجاهليتهم.

ثانياً– إعادة الثقة بالله وأن الأمر كله بيده وأن ما يجري هو امتحان من الله، وأن علينا أن نصبر على امتحانه وأن نرضى بقضائه.

ثالثاً– ترغيب الناس إلى الالتجاء إلى الله مالك الملك ومغير الأحوال وأن لا ملجأ من هذه البلايا والمصائب والفتن إلا باللجوء إليه مع التوبة النصوح والاستقامة على الإيمان.

رابعاً– توسيع مدارك الناس في كيفية التعامل مع هذه البلايا والمصائب والفتن، وطريقة التعايش معها، واتقاء شرها، والحذر منها، وما ينبغي للمؤمن أن يقوم به لتدارك الوقوع فيها، وكيفية الحفاظ على النفس والمال والعرض.

خامساً– العمل على مساعدة الآخرين من المنكوبين والمحتاجين والمهجرين ومحاولة تأمين المسكن والمأوى واحتياجاتهم من الفرش والملابس والطعام والشراب بقدر الاستطاعة مع المال اللازم لهؤلاء لمساعدتهم في العديد من مصروفاتهم الأخرى وذلك إما عن الطريق المباشر بما يسر الله لنا أو عن طريق حث الآخرين وترغيبهم إلى هذا العمل وضرورة مساعدتهم للآخرين وبأشكال مختلفة وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة مع التعاون مع العديد من الجمعيات الموثوقة التي تقوم بهذا العمل الضروري الذي لابد منه في هذه البلايا والمصائب والفتن مع استغلال كل الطاقات في هذا الموضوع والعمل فيه على جميع المستويات.

– اللهم احفظ البلاد والعباد والطف بهما وجنبنا البلايا والمصائب والفتن ما ظهر منها وما بطن، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه وألهمنا العمل فيما يرضيك عنا وألهمنا العمل على خدمة دينك وخدمة عبادك في هذه البلايا والمصائب والفتن واجعلنا من المخلصين وتقبل منا يا رب العالمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الأولى

البلايا والمصائب والفتن

● في القرآن الكريم ذكرت آيات كثيرة تتحدث عن امتحان الله لعباده في دار الدنيا تحت عنوان البلاء والمصائب والفتن، وهي وإن كانت كلمات مترادفة لكن كل مفردة منها تحوي معنى خاصاً بها.

البلاء: هو الامتحان والاختبار من الله ﷻ لجميع خلقه المؤمن وغير المؤمن، وهو على نوعين:

النوع الأول– بلاء اختيار: وهو تقدير الله لخلقه في الحياة الدنيا لتظهر حقائق الإنسان في نتيجة تخيير الله له في أن يختار طريق الخير أو الشر الذي سينال جزاءه في الآخرة، الجنة أو النار.

قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١–٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

النوع الثاني– بلاء قدر وإجبار: وهو ما يمتحن الله ﷻ به الإنسان قدراً منه وتقديراً، يقع على الإنسان دون إرادة منه، وذلك امتحان من الله ﷻ للإنسان، مما يظهر تصرف هذا الإنسان تجاه هذا الامتحان فيقرر الإنسان مصيره في الدنيا والآخرة، وهو على نوعين:

١– **بلاء منح:** وهو ما يتفضل الله به على عباده من نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى من غنى ومال وصحة وعافية ومسكن وزوجة وأولاد وعمل ناجح وربح وفير وغير ذلك من النعم الكثيرة، فهو بلاء منح أيشكر أم يكفر قال

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣].

وقال ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

وهناك قانون رباني ينبه الله ﷻ فيه لنتائج هامة لهذا الموضوع، فيقول ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

تَأَذَّنَ: أي آذنكم ربكم وأعلمكم وأخبركم على لسان أنبيائكم ورسلكم ومن بعدهم علمائكم بهذا القانون الإلهي.

٢- بلاء محن: وهو محن يبتلي الله بها عباده ليمتحنهم الله ﷻ فيظهر موقفهم من هذا البلاء، فينال جزاءه في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

وقال ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

- وقد تحدث النبي ﷺ عن موقف المؤمن الحق في كلا البلاءين فقال: «عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ

سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ».

[أخرجه مسلم عن صهيب ﷺ]

● وقد ذكرت مشتقات البلاء في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثين آية منها:

قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقوله ﷻ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

[الأعراف: ١٦٨]

وقوله ﷻ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

● وهذا البلاء الذي هو امتحان من الله ﷻ لعباده ينال الناس جميعاً دون استثناء، وقد بين النبي ﷺ قانون الله في هذا البلاء، فقال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يُبْتَلَى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صُلْباً اشتد بَلاؤُهُ وإن كان في دينه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يَتْرُكَهُ يمشي على الأرض وما عليه خَطِيئَةٌ».

[أخرجه البخاري، والترمذي عن سعد بن أبي وقاص ﷺ]

– وقال رسول الله ﷺ: «إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

[أخرجه الترمذي عن أنس ﷺ]

– وقال رسول الله ﷺ: «ما ابتلى الله عبداً ببلاء وهو على طريقة يكرهها، إلا جعل الله ذلك البلاء له كفارة وطهوراً، ما لم يترل ما أصابه من

البلاء بغير الله أو يدعو غير الله في كشفه».

[أخرجه ابن أبي الدنيا عن أم سلمة رضي الله عنها]

- وقال رسول الله ﷺ: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض».

[أخرجه الترمذي عن جابر رضي الله عنه]

المصيبة: هو الأمر المكروه يترل بالإنسان بتقدير الله عليه، وقد ذكرت مشتقاها في القرآن بأكثر من ثمانين آية منها:

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٢٢﴾ [الحديد: ٢٢].

أي ما أصابكم أيها الناس من مصيبة في الأرض من أنواع المصائب الكثيرة من خسارة أو ضياع أو قحط أو سرقة أو هدم أو فقد أو غير ذلك أو في أنفسكم من الآلام والأوجاع والأسقام والأمراض كل ذلك مقدر عليكم من الله عز وجل ومسجل في أم الكتاب أي في اللوح المحفوظ في وقت حدوثه وشكله من قبل أن تخلق الأنفس.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠].

- أي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ كما جاء في الحديث الشريف: قال عُبَادَةُ بْنُ الصَّامت لابْنه يَا بُنيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجدَ طَعْمَ حَقيقَة الإِيمَان حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ. قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ

قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي». [أخرجه أبو داود]

وقال ﷻ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن: ١١].

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة: ٥١].

● المؤمن بقضاء الله وبقدره يستغل أمواج البلاء بصبر جميل، فهو محفوظ التوازن في السراء والضراء أمره كله له خير، وليت شعري ماذا جنى الساخطون على ربهم إنهم لم يجنوا إلا الشقاء والتعاسة، تحالفت عليهم الهموم، وترادفت عليهم البلايا.

وكن بالذي خُطَّ باللوح راضياً فلا مهرب مما قضاه وخَطَّهُ

- قال النبي ﷺ: «ما أصاب المؤمن مما يكره فهي مصيبة».

[أخرجه الطبراني عن أبي أمامة ﵁]

- وقال ﷺ: «ما أصاب عبد مصيبة –أي ما أصيب عبد بمصيبة– فما فوقها إلا بإحدى خلتين بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بتلك المصيبة أو بدرجة لم يكن الله ليبلغه إياها إلا بتلك المصيبة».

[أخرجه أبو نعيم والديلمي عن ثوبان ﵁]

/لو أراد الله ﷻ أن يغفر لهذا العبد لغفر، ولكن هكذا قدر الله في عبده/

- وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها».

[أخرجه البخاري]

– وعن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها – إلا أخلف الله له خيرا منها». [أخرجه البخاري]

– وعن هاشم بن عبد الله بن الزبير: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصابته مصيبة –فاقة شديدة– فأتى رسول الله ﷺ فشكا إليه ذلك وسأله أن يأمر له بوسق من تمر –عنقود تمر أو كمية معروفة– فقال له رسول الله ﷺ: «إن شئت أمرت لك بوسق من تمر وإن شئت علمتك كلمات هي خير لك»؟ قال: علمنيهن ومر لي بوسق فإني ذو حاجة إليه فقال: «قل: اللهم احفظني بالإسلام قاعدا واحفظني بالإسلام قائما واحفظني بالإسلام راقدا ولا تطع في عدوا حاسدا وأعوذ بك من شر ما أنت آخذ بناصيته وأسألك من الخير الذي هو بيدك كله». [أخرجه ابن حبان]

– وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً تلا هذه الآية: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] فقال: إنا لنجزى بكل ما عملنا، هلكنا إذاً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «نعم يجزى به في الدنيا من مصيبة في جسده مما يؤذيه». [أخرجه ابن حبان]

– عن علي رضي الله عنه، أنه قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثني بها رسول الله ﷺ؟ قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠] /والآية تتحدث هنا عن عقوبات الذنوب وكفاراتها، وهناك نوع آخر وهو الامتحان في التكليف أو لرفع الدرجات لا من باب العقوبة، وهذا مختص بالمؤمنين/.

قال (أي علي) قال لي رسول الله ﷺ: «سأفسرها لك يا علي، ما أصابكم في الدنيا من بلاء أو مرض أو عقوبة فالله أكرم من أن يثني عليكم

العقوبة في الآخرة ، وما عفا عنه في الدنيا ، فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه». [أخرجه أبو يعلى]

– عن عمرو بن حزم ﷺ عن النبي ﷺ: «من عزى أخاه المؤمن في مصيبة كساه الله حلل الكرامة يوم القيامة». [أخرجه البيهقي]

– وقال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ مسلم تصيبه مصيبة تحزنه فيرجع إلا قال الله لملائكته أوجعت قلب عبدي فصبر واحتسب اجعلوا ثوابه منها الجنة وما ذكر مصيبته فرجع إلا جدد الله له أجراً».

[أخرجه الدارقطني في الأفراد، وابن عساكر عن الزهري مرسلاً]

الفتنة: الاختبار والامتحان الشديد وقد ذكرت مشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من ستين مرة من أهم معاني الفتنة الافتتان عن الدين أي تحول المؤمن عن دينه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [البقرة: ١٩١].

قال ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: ٢٥].

– عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ –أي الدين وكل شر في هذه الدنيا–». فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ». [أخرجه البخاري]

- وعن كعب بن عياض ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال». [أخرجه الترمذي]

- وعن أسامة بن زيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما تركت بعدي في الناس فتنة أضر على الرجال من النساء». [أخرجه الترمذي]

- وقال رسول الله ﷺ: «لا تكرهوا الفتنة في آخر الزمان فإنها تبين المنافقين». [أخرجه أبو نعيم عن علي ﷺ]

۞ ۞ ۞

مناجاة:

هات ما عندك هـــات	يـــا زمـــانَ الأزمـــات
أنا لا أخـــشاكَ فـــانثر	كلَّ مـــا في الجَعَبَـــات
وارم من نَبْلكَ ما شئـــ	ـــتَ فلن تـــثنيَ قنـــاتي
هل ترى الإعصارَ يوماً	هـــزَّ شُـــمَّ الراســـيات
أنـــا محمـــيٌّ بـــدرع	مـــن يقـــين وثبـــات
معـــي اللهُ فلـــمْ لا	أتحـــدى النائبـــات
معي الإيمـــانُ يهديـــ	ـني ببحـــر الظلمـــات
معي الإخلاصُ ينجـــي	مـــركبي والموجُعـــات
معي الـــصبرُ شـــارعي	في خـــضَمّ الحادثـــات
معي الحقُ وحبُ الـــ	ـــخير حبُ المكرمـــات
أنـــا بـــالله عزيـــزٌ	عـــزتي في ســـجداتي
أنا أقوى الخلق باللـــ	ـــه بذكري بـــصلاتي
كـــم توجهـــتُ إليـــه	في ديـــاجي الكُربـــات
كم أناجيـــه فألفيـــ	ـــه مجيبـــاً دعـــواتي
سامعاً همـــي وســـري	ودبيـــبَ الخُطـــوات

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الثانية

الدنيا دار بلاء

● نعم الدنيا دار بلاء واختبار وامتحان، وللحديث في هذا الموضوع:

لابد أن نبدأ بأن نسأل أنفسنا لماذا خلقنا الله ﷻ؟

- **الجواب**: روى عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ». [أخرجه البخاري]

فأراد الله جل جلاله وشاء أن يخلق الجن والإنس ليكون لهم غاية يسعون إليها في هذه الدنيا ليكافئهم عليها في الدنيا والآخرة، فينالوا سعادة الدارين، هذه الغاية هي معرفة الله ﷻ، بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧].

قال مجاهد رضي الله عنه: ليعبدون: أي ليعرفون.

والإنسان عندما يعرف الله حق المعرفة، لابد أن يحب الله ﷻ، فإذا أحبه أطاعه، وسار على الصراط الذي بينه الله له في القرآن، وأرشد إليه النبي ﷺ في سنته والتزم به في جميع شؤون حياته، فكان قدوة وأسوة حسنة لجميع المسلمين، كما وصفه الله تعالى في قرآنه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

● وقد نبه الله ﷻ المؤمنين أن يتبعوا الصراط الذي بينه في قرآنه الكريم، وأن يبتعدوا عن صراط طريق الشيطان، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى

مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

● وقد وجه الله ﷻ المؤمن أن يدعوه في كل ركعة من فرض أو سنة أن يهديه إلى هذا الصراط: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

● قد يسأل سائل من هم الذين أنعم الله عليهم؟ فيجيبه الله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

● فمن أراد أن يسير على هذا الصراط وجب عليه أن يطيع الله ﷻ ورسوله ﷺ في كل الأوامر، وينتهي عن كل النواهي.

● وقد يسأل سائل هل سينجح كل الناس في السير على هذا الصراط؟ الجواب: بالطبع لا، بين ذلك الله ﷻ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

● إذاً الخاسرون الراسبون في هذا الامتحان أكثر بكثير من الفائزين والناجحين.

● كيف سيعرف الرابح من الخاسر، والصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق؟ بين ذلك سبحانه فقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ١-٢].

وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: ١-٣].

● إذاً جعل الله ﷻ الدنيا دار اختبار وامتحان، والآخرة دار حساب وجزاء وثواب.

● والبلاء إما أن يقع على الفرد وأسرته أو أن يقع على الجماعة والأمة، والبلاءُ على أنواعٍ: فالغنى والفقْرُ بلاءٌ، والجمالُ والقبحُ بلاءٌ، والصحةُ والأمراضُ والعجزُ بلاءٌ، والشِّبَعُ والجوعُ والعَطَشُ بلاءٌ، وفَقْدُ الأَهْلِ أو فَقْدُ أحدهِم بلاءٌ، والحريةُ والتنعُّمُ بالخيراتِ والمكانةِ العاليةِ والمجدُ والذُّلُ والظلمُ بلاءٌ، وهكذا تتعدَّد وتتباينُ أنواعُ البلاءِ وإذا نظرنا في حيثياتِ البلاءِ وجدناهُ على نوعين: مِنْحَةٌ ومِحْنَةٌ:

مِنحـــةٌ تقتـــضي الـــشُّكْرَ   ومِحْنَـــةٌ تَقتَـــضِي الـــصبرَ

● **والمنحةُ** أعظمُ البلاءَيْنِ، لأنَّ القيامَ بحقوقِ الصبرِ أَيْسرُ من القيامِ بحقوقِ الشُّكْرِ.

● ولقد أدركَ سيِّدُنا عمرُ رضي الله عنه هذه الحقيقةَ فقال-معبراً عن صعوبةِ القيام بحقوق هذه المنحةِ-: «بُلينا بالضَّراءِ فصبرْنا، وبُلينا بالسراءِ فلم نَشْكُرْ».

[تفسير الألوسي]

روى عِكْرَمَةُ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: (ليس من أحدٍ إلا وهو يَحْزَنُ ويَفْرَحُ، ولكنَّ المؤمنَ يجعلُ مُصيبتَهُ صبراً، وغنيمَتَهُ شُكْراً).

[تفسير القرطبي]

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥].

● ينبغي للمؤمن أن يعلم أن كلا البلاءيْنِ فتنةٌ وامتحانٌ واختبارٌ، فليست المنحةُ عطاءَ استحقاق وليستْ دليلَ إكرامٍ وتقديرٍ دوماً، كذلكَ لَيستِ المِحنةُ إهانةً وطَرْداً وبُعداً كما يظُنُّ كثيرٌ من الناسِ، بل كلتاهما امتحانٌ واختبارٌ وابتلاء، هما بلاءُ عطاءٍ وبلاءُ منعٍ.

– كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: (الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وان كان الغنى فإن فيه البذل).

[قوت القلوب: أبو طالب المكي]

● وقد يختلط الأمرُ على كثيرٍ من الناس، وقد عَبَّرَ اللهُ سبحانَه عن هذا الالتباسِ فقالَ سبحانَه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

● لكنَّ المؤمنَ الحقَّ يَسْتَقْبِلُ بلاءَ الله بما يحبه الله عَبَّرَ عن ذلكَ النبيُّ ﷺ فقالَ: «عجباً للمؤمنِ لا يَقْضي اللهُ قضاءً إلا كانَ خيراً له، إن أصابته ضَرَّاءُ صَبَرَ فكانَ خيراً له، وإن أصابْتُهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانَ خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». [متفق عليه]

وقال ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ عز وجل لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ الْمُؤْمِنُ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِهِ». [أخرجه أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه]

● كذلك ينبغي للمسلم أن يعلم أن البلاء على نوعين:

الأول- بلاء اختيار: أي للإنسان الخيرة فيما يختار.

الثاني- بلاء إجبار: أي ليس للإنسان خيرة فيه.

أما بلاء الاختيار، فقد ترك الله ﷻ للإنسان أمر اختياره لطريقه في هذه الدنيا بين السعادة أو الشقاء بعد أن مهد له طريق الخير والسعادة، ووضحه له ثم شرح له عاقبة الطريقين، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ١-٣].

أي بينا وأوضحنا له وعرفناه طريق الهدى والضلالة، والخير والشر، وبصرناه بعواقب الأمور، وعرفناه منافع الأشياء ومضارها، وذلك عن طريق الفطرة والعقل، ودعوة الأنبياء والرسل، ثم من بعدهم دعوة الدعاة والعلماء.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

أي بينا له طريق الخير، وطريق الشر، فهو في ذلك إما أن يختار طريق الشقاء أو طريق السعادة فله الاختيار ولم يجبر على ذلك، وإنما يختار الإنسان لنفسه ما شاء، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

أما بلاء الإجبار، فهو بلاء من الله ﷻ لا يسعى إليه الإنسان، ولا يستجلبه وإنما يقدره الله ﷻ تقديراً منه لحكمة منه سبحانه، ويسمى هذا البلاء عندها المصيبة، والمصيبة على نوعين:

مصيبة لا تعوض كالموت، ومصيبة تتغير وتتبدل، كالمرض والخسارة وغير ذلك.

● هذا وإن ألوان البلاء كثيرة متعددة تعدد حاجات الحياة بكل جوانبها.

● وقد يسأل سائل ما أنواع الامتحانات والبلايا التي يمتحن الله بها المؤمن؟

أجاب الله ﷻ عن هذا السؤال بقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

- وَلَنَبْلُوَنَّكُم : نمتحنكم.

- بِشَيْءٍ : لفظ مفرد ومعناه الجمع، ويدل على القلة، وفي هذه الكلمة فضلٌ إلهي أن البلاء قليل، ومع ذلك قلَّ أن يتحمله إنسان إلا المؤمن، فكيف لو كان بلاءً كاملاً.

- **فمن هذا البلاء الخوف:** ضد الأمن، وهو تأمل القلب بانتظار ما هو مكروه عنده، فقد يكون خوفاً من العدو، أو خوفاً من الفقر، أو خوفاً من الضعف، أو خوفاً من المرض، أو خوفاً مما يؤذي أو خوفاً من المستقبل المنتظر. وعكس الخوف:

- **الرجاء:** وهو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده.

لكن المؤمن الذي وَالَى الله فأطاعه، وَالَاه الله بالحفظ والرعاية، فلا يخاف من مستقبل، ولا يحزن مما يصيبه لأنه يعلم أن الله ﷻ معه في كل الأحوال، يؤكد هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

– **ومن البلاء الجوع**: المتسبب من القحط والفقر وتعذر تحصيل القوت أو قلة المال لشراء الطعام أو عدم وجود الطعام لسبب ما أو غير ذلك من أسباب الجوع.

– **ومن البلاء نقص الأموال**: الضياع والهلاك والفقر والخسارة والحرمان والسرقة.

– **ومن البلاء نقص الأنفس**: عدم الإنجاب أو المرض أو الموت، كموت الأصحاب والأقارب والأحباب.

– **ومن البلاء نقص الثمرات**: وسبب النقص الجوائح أو تلف الزرع أو الجدب.

وقيل: بأن الحدائق والمزارع لا تغل كعادتها، وهذا بالنسبة للفلاحين، أو السرقة أو موت الأولاد بالنسبة لعموم الخلق.

– ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: من المؤمنين بقدر الله أي بالثواب على الصبر، وفي كلمة بشر هي من الله ﷻ لهؤلاء الصابرين:بشارة في الدنيا بالفرج القريب، وبشارة في الآخرة برضا الله وبثوابه في الجنة.

● تحدث الوزير أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي، قال: كنت في وقت من الأوقات -يعني في أول أمره- قد وقعت إلى شدة شديدة، وخوف عظيم، لا حيلة لي فيهما، فأقمت يومي قلقاً، وهجم الليل، فلم أعرف الغمض، فلجأت إلى الصلاة والدعاء، وأقبلت على البكاء في سجودي، والتضرع، وسألت الله عز وجل، تعجيل الفرج لي، وأصبحت من غد، على قريب من حالي، إلا أني قد سكنت قليلاً، فلم ينسلخ اليوم حتى جاءني الغياث من الله تعالى، وفرج عني ما كنت فيه، على أفضل ما أردت، فقلت:

بعثتُ إلى ربِّ العطايا رســالةَ توسُّلٍ لي فيها دعاءُ مُنَاصِــحِ
فجاءَ جوابٌ بالإجابة وانجلتْ بها كربٌ ضاقَتْ بهنّ الجــوانحِ

[الفرج بعد الشدة للتنوخي]

– ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ﴾: والمصيبة هي كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه. وهي النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت، وتستعمل في الشر فعن عمران القصير، قال: طفئ مصباح النبي ﷺ فاسترجع (أي قال: لا حول ولا قوة إلا بالله) قالت عائشة رضي الله عنها: إن هذا مصباح، قال: «كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة». [أخرجه أبو داود في مراسيله]

– ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾: توحيدٌ وإقرارٌ بالعبودية والملك، وأنَّ الله هو خالقنا، فنحن لله فهو خلقنا، وهو مالكنا وبيده أمرنا.

– ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾: وإقرار بالموت والبعث بعد ذلك، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه،كما هو له.

وراجعون لها معنيان: راجعون إليه في الدنيا في كل أمورنا ليختار لنا ما فيه صلاحنا، وراجعون إليه في الآخرة بالحساب والجزاء.

قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: (لم تعطَ هذه الكلمات نبياً قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال: يا أسفاه على يوسف). [تفسير القرطبي]

وعن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما: عن النبيِّ ﷺ: «من استرجَعَ عند المصيبةِ جَبَرَ اللهُ مُصيبتَهُ (أي ساعده على تخطيها) وأَحْسَنَ عاقبتَهُ وجعلَ لهُ خَلَفاً صالحاً يرضاه». [أخرجه البيهقيّ في شُعَبه]

وعن أُمّ سَلَمَة زَوْج النَّبيِّ ﷺ تَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي

وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا إِلاَّ أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْراً مِنْهَا». قَالَتْ فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. [أخرجه مسلم]

– **أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ**: أي لهم صلاة الله عليهم وعفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياهم في الدنيا والآخرة.

قال الزجاج: الصلاة من الله ﷻ: الغفران والثناء الحسن.

– **وَرَحۡمَةٞۖ**: ذكر الخاص بعد العام تأكيداً وإشباعاً للمعنى وقيل أراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة، وقيل في الرحمة إنها النعم التي أنزلها به عاجلاً ثم آجلاً.

– تعالوا لنرى المثال الذي ضربه لنا سيدنا عمر ﵁ في هذه الآية.

قال سيدنا عمر ﵁: (نعم العدلان ونعم العلاوة). [تفسير ابن كثير]

العدلان: هما ما يوضع على طرفي الدابة (الخرج).

والعلاوة: هي ما توضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً، وقد أراد سيدنا عمر ﵁ بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الاهتداء.

وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ: قال ابن مسعود: (لئن أخِرَّ من السماء أحب إليّ من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى ليته لم يكن). [تفسير الرازي]

– قال العُتبيّ (أحد العلماء الصالحين): قَدِم علينا أعرابيّ في فِشّاشٍ (من اليمن) قد أَطْردت اللِّصَاصُ إبلَه (أي ساقها اللصوص وسرقوها) فَجَمعتُ له شيئاً من أهل المسجد، فلمّا دفعتُ إليه الدراهم أنشأ يقول:

لا والَّذي أنا عَبْد في عِبادتـــه		لولا شَماتُة أعداء ذَوي إحَـــنِ
ما سرَّني أنّ إبلي في مَبارِكهـــا		وأنّ أمراً قـــضاه اللهُ لم يَكُـــن

[العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي ١/٤٢٦]

- أخذ هذا المعنى بعض المحْدَثين فقال:

لولا شَمَاتَةُ أعداءِ ذَوِي حَسَدِ		وأنْ أنال بنَفْعِي مَنْ يُرَجِّينِـــي
لما خَطَبْتُ إلى الدُّنيا مَطالَبــــهاً		ولا بذلتُ لها عِرْضي ولا دِيني
لكنْ مُنافسة الأكفاءِ تَحْمِلـــني		على أُمور أرَاها سَوْف تُرْدِيني
وقد خَشِيتُ بأن أَبْقَى بمَترلـــةٍ		لا دينَ عندي ولا دُنْيا تُواتيني

[العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي]

- إحن: البغض والضغينة.

- في البيتين الأولين المقصود بهما أن الأعرابي قَبِلَ أخذ هذا المال ليشتري إبلاً بدل إبله حتى لا يشمت به أعداؤه لما حدث له، لكنه في أتم الرضا عما قضاه الله عليه.

- أما قول بعض المحدثين فهو إشارة إلى خطر مرض منافسة الأكفاء التي تحوج أحدهم أحياناً إلى التصرف بما لا يهواه ولا يحبه، لكن المنصف يخاف من هذه الحالة بأن يصل إلى مترلة لا دين فيها ولا دنيا.

- وقيل في قوله تعالى: المهتدون إنهم المهتدون لهذه الطريقة الموصلة بصاحبها إلى كل خير، وذلك أن هداهم الله لتحمل المصائب، والصبر عليها واستقبالها بـــ(**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ**) وقيل: المهتدون إلى الجنة والفائزون بالثواب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الثالثة

ما حكمة الله ﷻ في بلائه؟

● للجواب عن هذا السؤال يجب أن نعلم أولاً أن الله ﷻ يفعل ما يشاء، ولا يستطيع أحد أن يقول يا ربِّ لِمَ فعلت ذلك، لأنه سبحانه قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

– وهو مالك الملك له الخيرة فيما يفعل في ملكه، قال ﷻ: ﴿**قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

● لكن المؤمن إذا أراد أن يستقصي بعض حكم الله ﷻ في ما ابتلى الله عباده بمشيئته وإرادته سبحانه وتعالى يصل إلى ثلاث حكم:

١- إما أن يكون البلاء عقوبة.

٢- أو أن يكون البلاء امتحاناً.

٣- أو أن يكون البلاء رفع درجات.

وهذا يحتاج إلى بيان وتفصيل.

١- العقوبة:

أولاً- أن يكون البلاء عقوبة إما للفرد، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩].

ثانياً- وإما أن يكون البلاء عقوبة للجماعة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠].

- وبلاء العقوبة يكون بسبب الغفلة عن الله ﷻ ومعصيته وارتكاب المحرمات وعدم اجتناب المنهيات أو بسبب الظلم والعدوان أو الغش والخداع أو غير ذلك.

- وبلاء العقوبة يكون للمؤمن وغير المؤمن.

- أما للمؤمن فعقوبته من أجل أن ينتبه إلى ما وقع منه من الغفلات والمعاصي والذنوب، فبلاء العقوبة له للتنبيه والتذكير والردع والعودة إلى شرع الله ﷻ، فالموفق عند هذا البلاء يراجع نفسه، ويستغفر من ذنوبه، ويتوب إلى الله توبة نصوحا، ويلتزم الطريق المستقيم.

- أما غير المؤمن فبلاء العقوبة له على ما اقترف من معاصي في حق الله ﷻ أو عباده، وهي عقوبة مؤلمة موجعة فيها سخط الله عليه وفيها هلاكه وتدميره أحياناً في الدنيا إلى جانب ما سيؤول إليه من العذاب في الآخرة.

- وهذا النوع من البلاء -بلاء العقوبة- هو أول ما حدث للبشرية عندما وقع آدم وحواء في مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى وهما في الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور كانت بلاء العقوبة لهما الهبوط إلى دار الآلام والأحزان والمصائب قال تعالى: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦].

– فما كان من آدم وحواء إلا الإسراع بالتوبة الصادقة والإنابة إلى الله، قال ﷻ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٣٧].

– وهذا حال كل مؤمن إذا نزل به بلاء العقوبة وجب عليه الإسراع إلى الله ﷻ بالاستغفار والصدقات والتوبة والإنابة إليه.

– أما إبليس فكان بلاء العقوبة له لاستكباره وعدم استجابته لأمر الله قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: ٣٤].

– فكانت عقوبة البلاء له أن أُخرج من ملكوت السماء فلعن وطرد ومُسخ ظاهره وباطنه، فجعل الله صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدِّل بالقرب بُعداً، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمان كفراً، وحلَّ عليه غضب الله وسخطه.

– والمؤمن الموفق ما أن يلاحظ أن بلاء العقوبة قد نزل عليه إلا ويعلم أنه بذنب قد اقترفه، واضعاً نصب عينيه قول النبي ﷺ: «لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر». [أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن قتادة والضياء عن الحسن رضي الله عنه]

– عندها يسرع هذا المؤمن للتوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى مما وقع منه، قال سيدُنا عليٌّ كرَّمَ الله وجهَهُ: «ما نزلَ بلاءٌ إلا بذنبٍ، ولا رُفِعَ إلا بتوبةٍ».

– وهو على يقين من أن تعجيل الله ﷻ له بالعقوبة هو فضل منه جل جلاله حتى يرتدع عن ذنوبه ويرجع إليه جل جلاله، فيعود إلى أمنه وسروره، ومن جهة

أخرى حتى لا يؤخر له العقوبة إلى الآخرة، فعقابه في الدنيا أهون بكثير من عذاب الآخرة، بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة». [أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنه]

– وفي هذا الموضوع يروى أن الإمام المفسر الزمخشري سئل عن سبب قطع رجله فقال: أمسكت عصفوراً في صباي وربطته بخيط في رجله، وأفلت من يدي ودخل في فرع –أي فراغ في حائط– فجذبته فانقطعت رجله، فلما رحلت إلى بخارى لطلب العلم سقطتُ من الدابة فانكسرت رجلي، فكان لابد من قطعها، وكان يمشي برجل من خشب.

– وينبغي للمؤمن أن يعلم أنه إذا عوقب في الدنيا على ذنب من الذنوب فيما بينه وبين الله لن يعاقب عليه في الآخرة. يظهر هذا المعنى فيما ورد في تفسير الرازي لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٠].

– فعن الحسن قال: دخلنا على عمران بن حصين في الوجع الشديد، فقيل له: إنا لنغتم لك من بعض ما نرى، فقال لا تفعلوا فو الله إن أحبه إلى الله أحبه إلي، وقرأ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٠] فهذا بما كسبت يداي، وسيأتيني عفو ربي، وقد روى أبو سخلة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «ما عفى الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود إليه في الآخرة، وما عاقب عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه في الآخرة».

[كتاب البسيط في التفسير: الواحدي]

وقال: إذا كان كذلك فهذه أرجى آية في كتاب الله لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفره عنهم بالمصائب في الدنيا، وصنف عفا عنه في الدنيا ، وهو كريم لا يرجع في عفوه ، وهذه سنّة الله مع المؤمنين.

- هذا وإن للذنوب آثاراً سيئة كثيرة في حياة الإنسان يشعر المؤمن بها عند نزول العقوبة فيسرع في معالجتها بالتوبة الصادقة قبل فوات الأوان منها حرمان المسلم من العلم والرزق والطاعة ووحشة بينه وبين ربه وبين الناس، وظلمة في قلبه ووهن في القلب والبدن، ومحق بركة العمر والرزق وذل وطرد وحرمان من فضل الله ورحمته وشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة.

- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلاَّ الْبِرُّ وَلاَ يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلاَّ الدُّعَاءُ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ». [أخرجه ابن ماجه عن ثوبان رضي الله عنه]

- قالَ الفضيلُ -رحِمَهُ اللهُ-: «ما أنكرت من تَغُّيرِ الزمانِ وجفاءِ الإخوانِ فذنوبُكَ أورثَتْكَ ذلكَ».

- قالَ بعضُهم: إني لأَعْرِفُ عُقوبةَ ذنبي من سوءِ خُلُقِ دابتي.

- وقالَ آخرُ: أَعْرِفُ العقوبةَ حتى في فَأرِ بيتي.

- كذلك فإن الذنوب تكون سبباً في تقاعس الإنسان عن الطاعات كما قال أبو سليمانَ الدارانيُّ -رحَمَهُ اللهُ تعالى-: «لا يَفُوْتُ أحداً صلاةُ الجماعةِ إلا بذنبٍ يُذْنِبُه».

- وينبغي للمؤمن إن وجد تغيراً في أحواله أن يعلم أن هذا التغير من نفسه، ولا يمكن أن يعود إلى حاله من الخير إلا بالرجوع إلى الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

- جاءَ في بعضِ الآثارِ الإلهيةِ، عن الربِّ تبارَكَ وتعالى أنه قالَ: «وعِزَّتي وجلالي، لا يكونُ عبدٌ من عَبيدي على ما أُحبُّ، ثم ينتقلُ عنه إلى ما أَكرَه، إلا انتقلْتُ له مما يُحبُّ إلى ما يَكْرَهُ، ولا يكونُ عبدٌ من عبيدي على ما أَكْرَهُ ثم يَنْتَقِلُ عنه إلى ما أُحِبُّ، إلا انتقلْتُ له ممَّا يَكْرَهُ إلى ما يُحِبُّ».

[الجواب الكافي لابن القيم ص ٨١]

- ويقول الشاعر:

إذا كُنْتَ في نِعْمَـــةٍ فارْعَهَـــا   فإنَّ المعاصـــي تُزِيْـــلُ الـــنِّعَمْ

- أحدُ التجارِ في سوقِ الحريقةِ يَبيعُ بالجملةِ فقط، دخلَتْ مَتْجَرَهُ امرأةٌ من ضواحي المدينة أَعْجَبَها أحدُ الثيابِ المعروضة على واجهةِ مَتجره، فسألَتْهُ عن ثمنهِ فردَّ عليها غاضباً مُزمجراً مُستَهزئاً (أما قرأْتِ أنني أبيعُ بالجُمْلَةِ ولا أَبيعُ بالمفرَّقِ)، ثم طردَها مكسورةَ الخاطرِ.

يقولُ هذا التاجرُ فو الله ما راجعَني أحدٌ من تجارِ الجُمْلةِ أكثرَ منْ شهرين، فلم أَبِعْ خلالهما شيئاً وأنا صاحبُ المتجرِ الذي لا يخلو ساعةً من داخلٍ أو خارج. فلما راجعْتُ نَفْسِيْ عَلِمْتُ أَنَّني حُرِمْتُ الرزقَ بسببِ تلك المرأةِ التي رَدَدْتُهَا ووقفتُ منها ذلك الموقفَ، وعلمْتُ أنَّ ذلكَ عقوبةٌ من الله لتكبُّرِي على الناسِ فَتُبتُ إلى الله فاستغفرْتُ وتصدَّقْتُ وعاهَدْتُ اللهَ ألا أعودَ إلى مثلِها أبداً وما أسرعَ ما تَقاطَرَ المشترون إلى مَتجري، ومنذُ ذلكَ الحين أصبحْتُ أبيعُ بالمفرَّقِ والجملةِ فتضاعَفَ البيعُ، ونَمَتْ تجارتي.

- ومع أن معاصي ابن آدم كثيرة وسيئاته عظيمة ولكن الله عز وجل يرأف بهم ويحاسبهم عن بعضها، ولو حاسبهم بما يستحقون لما بقي منهم أحد.

قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ

ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ [فاطر: ٤٥].

- عن يوسف بن الحسين قال: كنت مع ذي النون المصري على شاطئ غدير، فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شطِ الغدير واقفة، فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير فركبتها العقرب فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت، فقال ذو النون: إن لهذه العقرب لشأن فامضِ بنا، فجعلنا نقفو أثرها، فإذا رجل نائم سكران، وإذا حية قد جاءت، فصعدت من ناحية سرته إلى صدره، وهي تطلب أذنه، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها، فانقلبت وماتت.

ورجعت العقرب إلى الغدير، فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت.

فحرك ذو النون الرجل النائم، ففتح عينيه فقال: يا فتى انظر ما نجاك الله، هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي قتلتك:

يا غــافلاً والجليــلُ يحرســهُ   من كل سوءٍ يَدِبُّ في الظُّلــمِ
كيف تنامُ العيونُ عــن مَلِــكٍ   يأتيــه منــه فوائــدُ الــنِّعَمِ

فنهض الشاب وقال: إلهي هذا فعلك بمن عصاك فكيف رفقك بمن يطيعك؟ ثم ولى، فقلت إلى أين، قال: إلى ربي والله لا عدت إلى معصيته أبداً.

[التوابين: ابن قدامة ص٦٣]

- من هذه القصة ينبغي للمؤمن أن لا يغفل عن الله ﷻ وعقوبته خوفاً من أن يكون ذلك استدراجاً له، وتكون العقوبة عندئذٍ أشد وأعظم.

قال الشاعر:

يا آمناً مع قبح الفعل منه أهــل   أتاك توقيع أمن أنــت تملكــه؟
جمعت شيئين: أمنا، واتباع هوى   هذا ، وإحداهما في المرء تهلكــه

والمحسنون على درب المخاوف قد ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرطت في الزرع وقت البذر من سفه فكيف عند حصاد الناس تدركه؟
هذا وأعجب شيء فيك زهدك في دار البقاء بعيش سوف تتركــه
من الـــسفيه إذا بـــالله؟ أنـــت أم المغبون في البيع غبناً سوف يدركه

– وينبغي أن يعلم الإنسان أن بلاء العقوبة يحدث للفرد والمجتمع، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

– فإن كان المجتمع يسوده الفساد عُوقب هذا المجتمع ببلاء كبير من جنود الله المتعددة كالخسف والتدمير والغرق وغير ذلك. كما عاقب الله ﷻ الأقوام السابقة: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١١-١٤].

– عن جبير بن نفير قال لما فتحت قبرص فرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض ورأيت أبا الدرداء: جالساً وحده يبكي فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره بينا هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى. [أخرجه أبو نعيم في الحلية وأحمد في الزهد]

– وجاء في تفسير الرازي لسورة الفاتحة عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبياهم في المكتب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بسببه العذاب أربعين سنة.

وأما إذا كان في المجتمع خليط من الصالحين والفاسدين فله سبحانه في شأنه حكمان:

- **الحكم الأول**: أن ينجي الله ﷻ الصالحين وتقع العقوبة على الفاسدين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال ﷻ: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٢-١٠٣].

- وعن أنس بن مالك ؓ، أنه دخل على عائشة رضي الله عنها ورجل معه، فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين، حدثينا عن الزلزلة، فقالت: «إذا استباحوا الزنا، وشربوا الخمر، وضربوا بالمغاني، وغار الله ﷻ في سمائه فقال للأرض: تزلزلي بهم. فإن تابوا ونزعوا، وإلا هدمها عليهم. قال: قلت: يا أم المؤمنين، أعذاب لهم؟ قالت: بل موعظة ورحمة وبركة للمؤمنين، ونكال وعذاب وسخط على الكافرين». قال أنس: ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحاً مني بهذا الحديث. [أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات]

والحكم الثاني: أن يعمَّ البلاء والعقوبة على الجميع المؤمنين وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

- عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْت أَبِى سُفْيَانَ عَنْ زَيْنَبَ ابْنَة جَحْشٍ - رضى الله عنهن أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ». وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ

الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ». [أخرجه البخاري]

– عن مسعر، قال: «بلغني أن ملكاً أمر أن يخسف بقرية، فقال: يا رب، فيها فلان العابد، فأوحى الله تعالى إليه: أن به فابدأ، فإنه لم يتمعر وجهه في ساعة قط». [أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات]

٢– أن يكون البلاء امتحاناً:

– قال رسول الله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ».

[أخرجه البخاري]

– وعن أنس رضي الله عنه قال، قال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». [أخرجه الترمذي وابن ماجه]

– من هنا كان على المؤمن إذا أصابه بلاءٌ أن يرضى بما أصابه ليرضى الله عز وجل عنه ويكافئه، وعليه ألا ينظر إلى المصيبة بقدر ما ينظر إلى ما أنعم الله عز وجل عليه، وهناك مثالٌ واقعي لهذا الموضوع نراه في قصة عروة بن الزبير رضي الله عنهما عندما قطعت رجله ومات أعز أولاده في ليلة واحدة فدخل عليه أصحابه ليعزوه فوجدوه يقول: «اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت منهم واحدا وأبقيت ستة، وكانت لي أطراف أربعة فأخذت منها طرفاً وأبقيت لي ثلاثة، وأيمك لئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت». [أخرجه البيهقي في شعبه]

٣– أن يكون البلاء رفعاً للدرجات وزيادة في الحسنات ومحواً للسيئات:

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ». [أخرجه البخاري]

– وعن أبي هريرة ﷺ، عن رَسُولِ اللَّه ﷺ قَالَ: « إِذَا سَبَقَتْ لِلْعَبْدِ مِنَ اللَّه مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِه ابْتَلاَهُ اللَّهُ فِي جَسَدِه أَوْ فِي مَالِه أَوْ فِي وَلَدِه ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ ». [أخرجه الحاكم في المستدرك]

– وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ (وجع) وَلاَ نَصَبٍ (تعب) وَلاَ سَقَمٍ (مرض) وَلاَ حَزَنٍ حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ (أي يغمه) إِلاَّ كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِه». [أخرجه مسلم]

– وعن بريدة الأسلمي ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أصاب رجلا من المسلمين نكبة فما فوقها حتى ذكر الشوكة إلا لإحدى خصلتين، إلا ليغفر الله من الذنوب ذنبا لم يكن ليغفر له إلا بمثل ذلك، أو بلغ به من الكرامة كرامة لم يكن يبلغها إلا بمثل ذلك». [أخرجه البيهقي]

– وعن عائشةَ –رضي اللهُ تعالى عنها– قالت: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا كَثُرَتْ ذُنُوبُ العبدِ، و لم يكنْ لهُ ما يُكَفِّرُها ابتلاه اللهُ بالحُزْنِ ليُكَفِّرَها».

[أخرجه أحمد]

– وعن رسولِ الله ﷺ: «ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِه وولدِه ومالِه حتى يلقى اللهَ تعالى وما عليه خطيئةٌ».

[أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح عن أبي هريرة ﷺ]

– وعن أنسٍ ﷺ قالَ: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ ﷻ قالَ: إذا ابتلَيْتُ عبدي بحبيبتَيْه (يُريد عَيْنَيْه) فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ منهما الجنةَ». [أخرجه البخاري]

– وعن أبي موسى ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا ماتَ ولدُ العبدِ قالَ اللهُ تعالى لملائكته: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فيقولونَ: نَعَمْ فيقول: قبضْتُمْ ثَمرَةَ فؤاده؟ فيقولونَ: نَعَمْ، فيقولُ: فماذا قالَ عبدي؟ فيقولون: حَمدَكَ واسترجَعْ، فيقولُ اللهُ تعالى: ابنُوا لعبدِي بيتاً في الجنةِ، وَسَمُّوْهُ بيتَ الحَمْدِ». [أخرجه أحمد والترمذي]

- قال رسول الله ﷺ: (قال الله تعالى: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو في ولده أو في ماله فاستقبله بصبر جميل استحييت يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً).

[أخرجه الحكيم الترمذي عن أنس رضي الله عنه في جامع الأحاديث القدسية وهو ضعيف]

- وقال ﷺ: «من أصيب بمصيبة في ماله أو جسده فكتمها فلم يشكها إلى الناس كان حقا على الله أن يغفر له».

[أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما]

● **أخيراً**: ينبغي للمؤمن إذا ابتلي ببلاء أو مصيبة أن يرجع سببها إلى نفسه من تقصير أو غفلة أو ذنب ارتكبه، فيستغفر الله ويتصدق ويتوب إليه حتى يرفع الله عنه هذا البلاء، فإن لم يجد شيئاً من ذلك عرف أن ذلك امتحاناً منه عز وجل لإيمانه، أو رفعاً لدرجاته، فعليه أن يرضى ويصبر فالعاقبة للمتقين.

● وعندما يرى المؤمن بلاءً أو مصيبة جرت على الآخرين من حوله ألا يشمت بهم إن كانوا مؤمنين على أنها عقوبة لهم، وإنما يظن خيراً أنها امتحانٌ لهم ورفع لدرجاتهم، وهذا حال المؤمن دائماً مع نفسه ومع الآخرين.

۞ ۞ ۞

وقال محمود الوراق:

لا تتبع الدنيا وأيامها	**ذماً وإن دارت بك الدائرة**
من شرف الدنيا ومن فضلها	**أن بها تستدرك الآخرة**

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الرابعة

ماذا يفعل المسلم قبل نزول البلاء؟

● يعيش المسلم في مجتمع يرى من حوله ما يحدث للآخرين، وما يعانون من بلاء متنوع، وامتحانات متعددة، وفتن كثيرة، وقد منَّ الله عليه بأن لا يمتحن بمثل ما امتحن غيره مع علمه أن كل إنسان سيمتحن، فالامتحان في الدنيا واقع لا محالة.

● فينبغي للمسلم أن يستعد لنزول البلاء قبل وقوعه وذلك من خلال ما يلي:

أولاً– المسلم على يقين على أن البلاء كائن من الله ﷻ في هذا الدنيا، لأن الدنيا هي دار اختبار وبلاء، وأن هذا البلاء حاصل لكل إنسان، كما قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ١-٢].

ثانياً– المسلم لا يخاف من البلاء لأنه قد والى الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

● فهو لا يخاف من المستقبل، وما سيحدث فيه، ولا يحزن مما أصابه من البلاء لأنه على إيمان يقيني أن ما يحدث إنما هو بإرادة الله ومشيئته في الامتحان، وأن الله ﷻ يعين أولياءه على هذا الامتحان، وتحمل هذا البلاء، والصبر عليه، لأنهم تحت كنفه ورعايته وحفظه، قال تعالى:

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

ثالثاً– المسلم يسعى دائماً لحفظ أوامر الله ﷻ، والوقوف عند حدود الشرع مبتعداً عن النواهي والمحرمات، مما يجعله مطمئناً لحفظ الله ﷻ له، وإلهامه على حسن التصرف مع البلاء، والصبر عليه، عملاً بوصية النبي ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَات احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

[أخرجه الترمذي]

رابعاً– المسلم يسعى دائماً إلى أعمال صالحة في أعلى منازلها يحتفظ بها لأيام الشدة، لتكون له سبباً لرفع البلاء عنه، كما جاء في الصحيحين في حديث الثلاثة الذين حبسوا في الغار، فدعوا الله بصالح أعمالهم فنجاهم مما كانوا فيه، وعملاً بقول النبي ﷺ في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما: «تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ».

[أخرجه الطبراني والحاكم في المستدرك عن ابن عباس]

● وحكي عن حذيفة المرعشي رضي الله عنه وكان قد خدم إبراهيم الخواص رضي الله عنه وصحبه مدة، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا في طريق مكة أياماً لم نأكل طعاماً، فدخلنا الكوفة، فأوينا إلى مسجد خرب، فنظر إلي إبراهيم وقال: يا حذيفة أرى بك أثر الجوع، فقلت هو كما ترى، فقال: علي بدواة وقرطاس، فأحضرهما إليه، فكتب بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال، والمشار إليه بكل معنى ثم قال:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكـــر		أنـــا جـــائع أنـــا ضـــائع
هي سته وأنا الضمين لنـــصفها		فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها		فأجر عبيدك من لهيب النـــار

قال حذيفة: ثم دفع إليَّ الرقعة، وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفعها إلى أول من يلقاك، قال: فخرجت، فأول من لقيني رجل على بغلة، فناولته الرقعة، فأخذها، فقرأها وبكى، وقال: ما فعل بصاحب هذه الرقعة؟ قلت: هو في المسجد الفلاني، فدفع إلي صرة فيها ستمائة درهم، فأخذتها ومضيت، فوجدت رجلاً، فسألته من هذا الراكب على البغلة؟ فقال: هو رجل نصراني، قال: فجئت إبراهيم وأخبرته بالقصة، فقال: لا تمس الدراهم، فإن صاحبها يأتي الساعة، فلما كان بعد الساعة أقبل النصراني راكباً على بغلته، فترجل على باب المسجد، ودخل، فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فبكى إبراهيم الخواص فرحاً به وسروراً، وقال الحمد لله الذي هداك للإسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

[المستطرف في كل فن مستظرف]

خامساً- المسلم صباحاً ومساءً يحصن نفسه وأهله بالأوراد والأدعية المأثورة التي تحصنه من كثير من الفتن أو البلايا والامتحانات العامة التي تصيب الناس مع الاستغفار والتوبة الدائمة مسترشداً بقول الله ﷻ:

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٥].

- وقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣].

- وكم نجّى الله تعالى أقواماً من الهلاك بسبب دعائهم، فلولا الدعاء لهلك الناس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ٧٧﴾ [الفرقان: ٧٧].

أي لولا دعاؤكم إياه وحده عند الشدائد والكروب لهلكتم، ولكن الله حفظكم بدعائكم.

- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم يترل، وإن الدعاء والبلاء ليعتلجان (يتصارعان) إلى يوم القيامة». [أخرجه الطبراني في الدعاء]

- وما أجمل أن ندعو بدعاء النبي ﷺ في مثل هذه المواقف وهو: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ اللَّهُمَّ لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ وَلاَ هَادِىَ لِمَا أَضْلَلْتَ وَلاَ مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لاَ يَحُولُ وَلاَ يَزُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ (الفقر والشدة) وَالأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ مَفْتُونِينَ». [أخرجه أحمد عن عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ]

●قيل لإبراهيم بن أدهم وكان مع أصحابه في سفر: انظر إلى هذا السبع الكبير، وقد ظهر لنا، قال: أرونيه، فلما رآه ذهب للسبع، وقال له: يا هذا أنت خلقٌ من خلق الله، فإن كنت أمرت فينا بشيء فامضِ لما أمرت به، وإلا فعودك على بدئك، قال: فولى السبع ذاهباً يضرب بذنبه، فتعجبوا كيف فهم هذا السبع كلام إبراهيم بن أدهم، فأقبل إبراهيم عليهم، فقال قولوا: اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بركنك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلك وأنت رجاؤنا.

الكنف: الإحاطة والصون.

ركن الشيء: جانبه الأقوى أي احطنا بقوتك وعزتك ومنعتك.

لا يرام: لا يضام ولا يهان ولا يقوى عليه أحد.

سادساً– المسلم دائم الشكر لله سبحانه وتعالى لا يغفل عن نعمه أبداً التي أنعمها عليه، والتي لا تعد ولا تحصى، يضع نصب عينيه دائماً قول الله عز وجل:

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨].

– ومردداً قوله جل جلاله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

– ومردداً قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

– مع ترداده كل يوم قول النبي ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافىً فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا».

[أخرجه الترمذي عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ]

آمناً في سربه: أي في نفسه.

● نظرَ أحدُ تُجَّارِ العَقاراتِ وهو من كبارِ أغنياءِ البلد، نظرَ إلى عماله وقتَ الظهيرةِ وعندَ تناولِهِمْ طعامَ الغداء فشاهدَهُمْ يأكلونَ فولاً مدمساً، مع خُبْزٍ تَنُّوريٍّ، ويضربون البصلَ بالأرضِ ويتناولونه مع طعامِهم والابتسامةُ تعلوا وجوهَهم، والضَّحِكُ يملأُ مجلسَهُم نظرَ إليهم وبكى، فأسرعَ العمال نحوَهُ يسألونه عن السبب، فقال لهم يا ليتني لا أملكُ شيئاً وأستطيعُ أن أعملَ مثلَكم وآكل أَكْلَكُمْ هذا، أنا مصابٌ بعدَّةِ أمراضٍ لا أستطيعُ أن آكُلَ ما تأكلون وأَعْمَلَ ما تعملون فما فائدةُ كلِّ ما أملكُ، أنتم الذينَ لا تملِكونَ شيئاً وتعملَون ليلَ نهارَ وبعملٍ مُضْنٍ خَيرٌ مني، ومما أَملكُ.

- فلما سمعتُ القصَةَ وفهمتُ مغزاها ردَّدْتُ قولَ النبيِّ ﷺ: «من باتَ آمناً في سِرْبِهِ، معافىً في بدَنِه، عندَهُ قوتُ يومِهِ، فكأنما حِيْزَتْ له الدنيا بحذافيرِها». [أخرجه الترمذي]

- قال الشاعر:

مــا أنعــمَ اللهُ علــى عبــدِه ... بنعمــةٍ أوفى مــن العافيــةْ
وكلُّ من عُــوفي في جــسمه ... فإنَّـــه في عيـــشةٍ راضـــيةْ
والمالُ حلــوٌ حــسنٌ جيــدٌ ... علــى الغــني لكنَّــهُ عاريــةْ
ما أحــسنَ الــدنيا ولكنَّهــا ... مع حُــسنها غــدارةٌ فانيــةْ

سابعاً– أن يدعو الله دائماً ويسأله العفو والعافية.

- روى معاذُ بنُ رِفاعَةَ بنُ رافعٍ الأنصاريُّ عن أبيه قال سمعْتُ:أبا بكرٍ الصديقَ رضي الله عنه يقولُ على منبرِ رسولِ الله ﷺ: سمعتُ رسولَ اللهﷺ يقول، فبكى أبو بكرٍ حينَ ذَكَرَ رسولَ الله ﷺ، ثم سُرِّيَ عنه، ثمَّ قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ في مثلِ هذا القَيْظِ عامَ الأول: «سَلُوا الله العفوَ والعافيةَ واليَقِيْنَ في الآخِرَةِ والأُولَى».

– وعن أنسٍ ﷺ أن رجلاً جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقال: (يا رسولَ اللهِ أي الدُّعاءِ أفْضَلُ)؟ قال ﷺ: «سَلْ ربَّكَ العافيةَ والمعافاةَ في الدنيا والآخرة».

ثم أتاه في اليوم الثاني فقالَ: (يا رسولَ اللهِ أيُّ الدعاءِ أفضلُ)؟ فقالَ له مثلَ ذلكَ، ثم أتاه في اليوم الثالث فقالَ له مثلَ ذلكَ، قال: «فإذا أُعطيْتَ العافيةَ في الدنيا وأُعطيْتَها في الآخرةِ فقد أفلحْتَ».

[أخرجه الترمذي وقال حديث حسن]

– عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قالَ: كان رسولُ الله ﷺ يقولُ: «اللهم إني أسألُكَ العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ وأهلي ومالي».

[أخرجه البزار]

– وعن أنسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يُرَدُّ الدعاءُ بين الأذانِ والإقامةِ»، قيل: (ماذا نقولُ يا رسولَ اللهِ ﷺ)؟ قالَ: «سلوا اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ». [أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن خزيمه وابن حبان]

– ما معنى العفو: فهو أن يعفو الله ﷻ عن العبد، فيمحو ذنوبه، ويزيل آثارها من صحائف الأعمال.

– وأما العافية: فهي ما يدفعه الله عن العبد من البلايا كائنة من كانت، وأن يسلم من الأسقام والبلايا، ومن كل مكروب.

– وأما المعافاة: فهي أن يعافي الله العبد من الناس، ويعافيهم منه، أي يغنيه عنهم، ويغنيهم عنه، ويصرف أذاهم عنه، وأذاه عنهم.

ثامناً– المسلم دائم الاعتبار بما يحدث من حوله، يحزن لمصاب الآخرين، ويدعو لهم بالفرج، ويحاول بكل إمكانياته أن يساعدهم على تخطي أزماهم،

وأن يكون إلى جانبهم في محنتهم، مستفيداً من هذه العبرة في زيادة التمسك بشرع الله ودينه دون أن يظهر فرحه بعدم امتحان الله له بما امتحن غيره.

- قال سهل التستري: منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي: الحمد لله مرة، قيل كيف ذلك؟ قال: وقع حريق ببغداد، فاستقبلني رجلٌ فقال لي: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت، حيث أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين. [الرسالة القشيرية]

● وينبغي للمسلم أن ينصح وأن يرشد وأن يقف إلى جانب من ابتلاه الله ﷻ، وأن يدله على طريق رفع البلاء من دعاء وصدقة وسؤال الله ﷻ العافية.

- فعن معاذ بنِ جبلٍ ﵁ قالَ: (مرَّ رسولُ الله ﷺ برجلٍ يقول: «اللهمَّ إني أسأَلُكَ الصبرَ»، فقال: «سألتَ الله البلاء فاسألْهُ العافيةَ».

[أخرجه البيهقي]

ومر رسول الله ﷺ بقوم مبتلين، فقال: (أما كانَ هؤلاء يسألونَ اللهَ العافيةَ). [أخرجَهُ البزار ورجاله ثقات]

- وفي هذا الحديثِ دليلٌ على أن سؤالَ اللهِ ﷻ العافيةَ يدفَعُ كلَّ بليةٍ، ويرفعُ كلَّ محنةٍ، ولهذا جاءَ ﷺ بهذا الاستفهام بمعنى الاستنكارِ، فكأنه قالَ لهم كيفَ تتركونَ أنفسَكُمْ في هذهِ المحنةِ والابتلاءِ؟ وأنتم تَجِدونَ الدواءَ الحاسِمَ، والمَرْهَمَ الشافيَ لما أصابَكُمْ منها، وهو الدعاءُ بالعافيةِ واستدفاعُ هذه المِحَنِ النازلةِ بكم بهذه الدعوةِ الكافيةِ.

● وفي هذا ما يَزيدُ النفوسَ نشاطاً والقلوبَ بصيرةً باستعمالِ هذا الدواءِ عندَ عُروض أيِّ داءٍ، ومَساسِ كلِّ محنة، ونزولِ كلِّ بليةٍ.

– وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ، قالَ رسولَ الله ﷺ: «لا يحل لمؤمنٍ أن يذل نفسه»، قالوا: يا رسول الله ﷺ (وما إذلالُهُ لنفسه؟)، قال: «يتعرَّضُ من البلاءِ لما لا يقومُ له». [أخرجه ابن النجار]

– وقد كان بالإمام الشافعي رضي الله عنه بواسير تنضح الدم ليلاً ونهاراً حتى صار لا يجلس إلا والطست تحته يتلقى ما يقطر من الدم فزاد به الألم يوماً، فقال اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني فقال له شيخه مسلم بن خالد الزنجي: مه يا محمد لست أنا ولا أنت من رجال البلاء سل الله العفو والعافية.

[العهود المحمدية: الشعراني]

– وجاء في كتاب البداية والنهاية للإمام ابن كثير رحمه الله (روى البيهقي أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد فقال: إن أمي مقعدة منذ عشرين سنة، وقد بعثتني إليك لتدعو لها، فكأنه غضب من ذلك وقال نحن أحوج أن تدعو هي لنا من أن ندعو لها، ثم دعا الله عز وجل لها فرجع الرجل إلى أمه، فدق الباب فخرجت إليه على رجليها وقالت قد وهبني الله العافية).

۞ ۞ ۞

قال الشاعر:

يا عظيماً يرجى لكل عظـــيم وعلى كل ما يـــشاء قـــدير
يا مجيب المضطر مهما دعـــاه يا إلهي أنت اللطيف الخـــبير

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الخامسة

ماذا يفعل المسلم إن نزل به البلاء؟

● المسلم المؤمن الذي تربى عند العارفين بالله ﷻ إن نزل به بلاء يتحرى أن يقوم بما يلي:

أولاً– أن يستقبل المسلم البلاء بالرضا عن الله ﷻ وعدم السخط، وأن يحتسبه عند ربه.

– قال عبد الواحد بن زيد –من أصحاب الحسن البصري–: (الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين). [أخرجه أبو نعيم في الحلية]

– عن عائشة **رضي الله عنها** قالت: من رضي عن الله رضي الله عنه. [أخرجه ابن عساكر]

ثانياً– أن يعلم المسلم أن كل ما أصابه إنما هو بقضاء الله وقدره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

– قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التغابن: ١١].

– قال عَلْقَمَةُ في تفسير هذه الآية: هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فَيُسَلِّمُ لها ويرضى. [الدر المنثور: السيوطي]

– قال يوسف بن أحمد البقال البغدادي–من أصحاب ذي النون المصري الصوفي–: كنت بمصر في واقعة بغداد (زمن التتار) فبلغني أمرها، فأنكرت بقلبي وقلت: يا ربِّ كيف هذا وفيها أطفال ومن لا ذنب له، فرأيت كتاباً فيه:

دعِ الاعتراضَ فما الأمرُ لـــك ولا الحُكْمُ في حركاتِ الفَلَكْ
ولا تـــسأَلِ اللهَ عـــنْ فعلِـــهِ فمن خاضَ لجُةَ بحـــرٍ هَلَـــكْ

[ذيل طبقات الحنابلة: ابن رجب ص٢٩٦]

● ويشير إلى معنى الآية السابقة قول الله عَجَلّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

- وقوله جَلَّالَةُ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ﴾. [القصص: ٦٨]

- وقوله جلَّ من قائل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١].

● والمسلم على يقين دائم بذلك يحفظ قول النبي ﷺ ويردده دائماً: «إن الله خَلَقَ كلَّ نَفّس و كَتَبَ حياتَها وَرِزْقَها ومصائبها».

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه]

- كما يردد قول النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». [أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

- وعنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ». [أخرجه الترمذي]

ثالثاً– أن يستقبل المسلم البلاء بالصبر، وأن يسترجع بقوله: إن لله وإنا إليه راجعون كما أمر الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

– وقد ذكر الله ﷯ حالة المؤمنين الصادقين المتقين فقال سبحانه: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

البأساء: شدة الفقر، الضراء: المرض أو فقد محبوب، البأس: شدة الحياة.

● هذا وقد وصف النبي ﷺ أحوال المؤمن عندما يصيبه البلاء متعجباً من أمره فقال ﷺ: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». [أخرجه مسلم]

● واعلم أيها المسلم الصابر أن الصبر مرٌ وصعبٌ، ولكن عاقبته حميدة كما قال الشاعر:

الصُبر مثلُ اسمه، مُــرٌ مذاقَتُــهُ ... لكنْ عواقبُهُ أحلى من العــسلِ

– وقال الشاعر:

اصبرْ ففي الصبرِ خيرٌ لو علمْتَ به ... لكُنتَ باركْتَ شُكراً صاحبَ النعمِ

واعلمْ بأنك إنْ لم تصطَبِر كرماً ... صبرتَ قَهْراً على ما خُطَّ بالقلمِ

– وأن يعلم المسلم أن ثواب صبره عظيم في الدنيا والآخرة وأن أهل الصبر هم البشرى السارّة من الله ﷯، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. [البقرة: ١٥٥]

– وأنهم فازوا بمحبة الله إياهم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. [آل عمران: ١٤٦]

- وأنهم ينالون معية الله جل جلاله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣].

- وأنهم في ظلال مغفرة الله ورحمته وهدايته قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧].

- فقد وعد الله عز وجل الصابرين بمضاعفة أجورهم، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤].

- ويؤكد القرآن عظيم الثواب للصابرين فيقول عز وجل: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [النحل: ٩٦].

- وينتهي بنا القرآن الكريم في تكريم الصابرين إلى أن ثوابهم غير محدود، بل هو موكول لفضل الله العظيم الذي لا حدود له ولا قيود فيقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: ١٠].

رابعاً– أن يعلم المسلم أن ما أصابه من أنواع البلاء المتعددة لا يدل على عدم رضا الله عنه، فقد امتحن الله جميع الأنبياء والمرسلين بامتحانات متعددة، فصبروا ورضوا عن الله عز وجل مع مكانتهم العالية عند الله عز وجل، وكذلك النبي ﷺ قد أصيب بأشد منها.

خامساً– أن يسأل المسلم ربه أن يلطف به فيما جرت به التقادير، وأن يعوضه الله خيراً مما أصابه امتثالاً لإرشادات النبي ﷺ.

- فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا. إِلاَّ أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْراً مِنْهَا». [أخرجه مسلم]

سادساً– أن يسأل المسلم الله ﷻ أن يجعل هذا البلاء تكفيراً لسيئاته، وزيادة في حسناته، ورفعاً لدرجاته.

سابعاً– أن يعلم المسلم أن البلاء هو اختبار وامتحان لابد لكل إنسان منه، بل إن أشد الناس بلاءً المقرَّبونَ من اللهِ عزَّ وجلَّ وإنَّ عِظَمَ الثوابِ بعِظَمِ البلاءِ، فقد سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن أشدِّ الناسِ بلاءً؟ فقالَ: «الأنبياءُ ثمَّ الأمثلُ، فالأمثلُ يُبتَلَى الرجلُ على حَسَبِ دينِه، فإن كان دينُهُ صُلْباً اشتدَّ بلاؤُهُ، وإن كانَ في دينِهِ رِقَةٌ ابتلاه اللهُ على حَسَبِ دينِهِ فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يمشي على الأرضِ وما عليه خطيئةٌ». [أخرجه الترمذي وغيره وقال حسن صحيح]

– وقال النبي ﷺ: «إن عِظَمِ الجزاءِ مَعَ عِظَمِ البلاءِ، وإنَّ اللهَ تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهُم فَمَنْ رَضِيَ فلهُ الرِّضى، ومن سَخِطَ فله السُّخْطُ».

[أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب]

● وقد ابتلى اللهُ ﷻ جميعَ أنبيائه ورسلِه فهذا آدمُ ابتُلِيَ بإبليسَ الذي كان سببَ خروجِهِ من الجنةِ وكذلكَ ابتُلِيَ بولدِهِ قابيلَ الذي قتلَ أخاه هابيلَ.

– ولقد ابتُلِيَ إبراهيمُ بأبيهِ الكافر وملاحقته بنار نمرود وقومِهِ، وتأخُّرِ الولدِ، وبذبح ولدِهِ إسماعيلَ.

– وابتلي لوط بزوجته وقومه.

– وابتُلِيَ يُوسفُ بالحسدِ من إخوانه وإلقائه في البئرِ وفقدانِهِ الوالدينِ والغُرْبَةِ والتشريدِ وفتنةِ النساءِ وكيدهنَّ والسجنِ.

– وابتُلِيَ أيوبُ بالمَرَضِ وفَقْدِ الأهلِ والأصحابِ.

– وابتُلِيَ موسى بإلقائه في اليمِّ وحرمانِهِ من أمِّه والملاحقةِ من قومِهِ والسحْرِ والغربةِ والمعاناةِ الشديدةِ من قومِهِ.

– وابتُلِيَ نبيُّنا ﷺ باليُتْمِ ومعاداةِ قومِهِ لهُ والحصارِ والفقرِ والجوعِ والملاحقةِ وإخراجِهِ مِنْ بيتِهِ وغُربتِهِ عن وطنِهِ وموتِ زوجتِهِ وأقربائِهِ وأولادِهِ وغيرِ ذلكَ.

– لقد تحمَّلَ الأنبياءُ كلُّ الأنبياءِ ما أصابهم من ألوان البلاءِ وقابلوه بالرِّضا والصبرِ، فنالوا بذلك ما نالوه من عزِّ الدنيا وعزِّ الآخرةِ.

– عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قالَ: دخلْتُ على النبيِّ ﷺ فقلْتُ: (يا رسولَ الله إنَّكَ تُوْعَكُ وَعْكَاً شديداً؟ قالَ: «أَجَلْ إنِّي أُوْعَكُ كما يُوعَكُ رجلانِ منكم»، قلْتُ: (ذلك أنَّ لكَ أجرين به) قالَ: «أَجَلْ ذلكَ كذلكَ، ما من مُسْلِمٍ يُصيبُهُ أذى شوكة فما فوقَها إلا كَفَّرَ اللهُ بها سيئاتِه، وحُطَّتْ عنه ذنوبُهُ كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقَها». [متفق عليه]

● كذلك ينبغي للمؤمنِ أن يعْلَمَ أن أعظمَ المصائبِ، المصيبةُ في الدِّيْنِ.

– عن عطاءِ بنِ أبي رباحٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أصابَ أحدَكُمْ مُصيبةٌ، فَلِيَذْكُرْ مُصابَهُ بي، فإنها من أَعْظَمِ المصائبِ». [أخرجه السمرقندي]

– قال ابنُ عبْدِ البَرِّ: وصدَقَ رسولُ اللهِ ﷺ، لأن المصيبةَ به أعظمُ من كلِّ مُصيبةٍ يُصاب بها المسلمُ بعدَهُ إلى يومِ القيامةِ، انقطع الوحْيُ وماتَتِ النبوَّةُ. [تفسير القرطبي]

– قالَ العارِفُ باللهِ الشيخُ عبدُ الغنيِّ النابلسيُّ:

اصْبِرْ لِكُلِّ مصيبةٍ وتَجَلَّدِ ... واعْلَمْ بأنَّ المرْءَ غيرُ مُخلَّدِ
وإذا ذكرْتَ مُصيبةً تُجْزَى بها ... فاذْكُرْ مُصابَكَ بالنبيِّ محمَّدِ

ثامناً: ينبغي للمسلم أن يديم الرجوع إلى الله عند امتحان الله له بالدعاء لله والوقوف على بابه قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ

أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

- وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

- وقال ﷻ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

فهذه الآية تدعو المؤمن الالتجاء إلى الله وحده لا إلى غيره عندما يمسه الله بضر، فيعلم أنه لا كاشف له إلا هو.

- عندما كان يوسف عليه السلام في السجن، فقد كان في بلاء وضر وامتحان من الله به، غفل عن الله، فقال لأحد صاحبيه في السجن: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ٤٢].

- عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل -يعني: يوسف- الكلمة التي قال: ما لبث في السجن طول ما لبث. حيث يبتغي الفرج من عند غير الله». [أخرجه الطبراني في الكبير وهو ضعيف]

وأما «البضع»، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع.

وقال وهب بن مُنَبِّه: مكث أيوب في البلاء سبعاً ويوسف في السجن سبعاً. [تفسير الطبري]

● المؤمن الحق يكرر دائماً قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

- وقوله ﷻ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

● وهو على علم يقيني أن الله سيستجيب له الدعاء، فما يزال العبد يقف على باب الله يدعوه ويدعوه ويستمر في الدعاء دون ملل أو يأس أو قنوط، وإن بعدت الاستجابة، فهو يعلم أن الله ﷻ سيستجيب له في الوقت الذي يختاره الله الذي فيه الخيرة لمن دعاه، وهو الوقت الذي فيه سعادته وتحقيق آماله، يعزز ذلك قول النبي ﷺ: «لاَ يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الاسْتِعْجَالُ قَالَ: «يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ -ينقطع- عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ». [أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

● والمؤمن الحق يأمل بالله ويرجوه ويثق به، ويتوكل عليه، ويحسن الظن به، وهو دائم الدعاء والالتجاء إليه، وهو لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله مهما طال الأمل، قال تعالى على لسان نبيه يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَايْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٨٧].

● واليأس من روح الله من الكبائر، قال تعالى:

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر: ٥٦].

والقنوط: اليأس من الخير.

قال الشاعر:

يا صاحب الهم إن الهم منقطع   لا تيأسن كأن قد فرج الله

● جاء في الحكمة السادسة لابن عطاء: (لا يكن تأخر العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك، فالله ضمن لك الاستجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريده، لا في الوقت الذي تريده).

● كل ذلك امتحان من الله لعبده المؤمن ليرى ما يفعل عند البلاء والفتن، وكيف يكون صبره على ذلك إلى أن يأتيه الفرج من الله ﷻ في تحقيق آماله في الدنيا والآخرة.

- قال ابن الجوزي: (نزلت فيَّ شدة وأكثرت من الدعاء أطلب الفرج والراحة وتأخرت الإجابة فانزعجت النفس و قلقت فصحت بها: ويلك تأملي أمرك أمملوكة أنت أم حرة مالكة؟ أمدبِّرة أنت أم مدبَّرة؟ أما علمت أن الدنيا دار ابتلاء واختبار فإذا طلبت أغراضك و لم تصبري على ما ينافي مرادك فأين الابتلاء؟ وهل الابتلاء إلا الإعراض وعكس المقاصد؟ فافهمي معنى التكليف وقد هان عليك ما عز وسهل ما استصعب، فلما تدبرت ما قلته سكنت بعض السكون،فقلت لها:وعندي جواب ثان وهو أنك تقتضين الحق (أي تطالبين الله) بأغراضك ولا تقتضين نفسك بالواجب له وهذا عين الجهل، وإنما كان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس لأنك مملوكة والمملوك العاقل يطالب نفسه بأداء حق المالك ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى فسكنت أكثر من ذلك السكون، فقلت لها: وعندي جواب ثالث وهو أنك قد استبطأت الإجابة وأنت سددت طرقها بالمعاصي فلو قد فتحت الطريق أسرعت كأنك ما علمت أن سبب الراحة التقوى، أو ما سمعت قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ٢].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق: ٤].

أو ما فهمت أن العكس بالعكس؟

آه من سُكْرِ غفلةٍ صار أقوى من كل سَكْرٍ في وجه مياه المراد يمنعها من الوصول إلى زرع الأماني فعرفت النفس أن هذا حق فطمأنت، فقلت: وعندي جواب رابع وهو أنك تطلبين ما لا تعلمين عاقبته وربما كان فيه ضررك فمثلك كمثل طفل محموم يطلب الحلوى والمدبر لك أعلم بالمصالح كيف وقد قال الله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فلما بان الصواب للنفس في هذه الأجوبة زادت طمأنينتها.

فقلت لها: وعندي جواب خامس وهو أن هذا المطلوب ينقص من أجرك ويحط من مرتبتك فمنع الحق (أي منع الله) لك ما هذا سبيله عطاء منه لك ولو أنت طلبت ما يصلح آخرتك كان أولى لك فأولى لك أن تفهمي ما قد شرحت فقالت: لقد سرحت في رياض ما شرحت فهمت (من هام يهيم) إذ فهمت). [صيد الخاطر: ابن الجوزي]

تاسعاً– أن يحمد المسلم ربه أن لم يكن البلاء أعظم وأكبر وأشد، كما ورد في قصة عروة بن الزبير ﵁ عندما قطعت يده ومات ابنه.

– وأن ينظر إلى هذا البلاء تفاؤلاً بالله بأنه لم يكن أكبر، ولطفاً من الله في ذلك، معتبراً بموقف سيدنا عمر ﵁ من المصائب.

– قالَ سيِّدُنا عُمَرُ ﵁ ما أصابَتْني مصيبةٌ إلاَّ وَجَدْتُ فيها ثلاثَ نعَمٍ: «الأولى: أنها لم تَكُنْ في ديني، والثانيةُ أنها لم تَكُنْ أَعْظَمَ مما كانَتْ، والثالثةُ أن الله يجازي عليها الجزاءَ الكبيرَ، ثم تلا قولَه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧].

● مَرِضَ الشَّيخُ أحمدُ الحارونُ وَكُفَّ بصرُهُ، واعتراهُ ألمٌ لا يهدأُ بالمُسَكِّنَاتِ فدخلَ عليهِ أحدُ مُحِبِّيهِ فوجَدَهُ يبكي فأخذَ يُواسيْهِ، ويذكرُ ماله

من الأَجْرِ في الصبر على ما أصابَهُ، فقالَ لهُ: لا أَبكي ضجراً من أَلمي، ولكنِّي أبكي فَرَحاً لأنَّ الله وجدَني أهلاً لأن يَبْتَلِيَني.

عاشراً: ينبغي للمسلم إن امتحنه الله واختبره في شيء لا يحبه، وأبعد عنه ما يحبه أن يكون على ثقة بأن ما اختاره الله له هو الخير.

– قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

– وقال ﷻ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾.
[النساء: ١٩]

– قال الشاعر:

كـم مـن نعمـة مطويـة   لـك بـين أثنـاء المـصائب

– وقال آخر:

كم مرة حفت بـك المكـاره   خار لك الله وأنـت كـاره

الحادي عشر– أن يعلم المسلم أن الجزع والهلع والتسخط لا يبرد حر المصيبة، ولا يزيل الهم والغم والحزن، بل يزيدها ويضاعفها حتى تصبح هي المرض والعياذ بالله تعالى.

– وأن يعلم أن من أنفع الأدوية بإذن الله ﷻ التعزي بأهل البلاء، وأنه لو تلفت يمنة ويسرى لوجد كل من حوله مبتلى أو منكوباً، ففي كل دارٍ نائحة، وعلى كل خد دمع، وفي كل واد بنو سعد (أي أصحاب مصائب).

● كم من المصائب، وكم من الصابرين، فلست أنت وحدك المصاب، بل مصابك أنت بالنسبة لغيرك قليل، كم من مريض على سريره من أعوام، لا يستطيع التقلب ذات اليمين وذات الشمال، يأن من الألم، ويصيح من السقم.

● وكم من مصاب فقد أهلاً ومالاً وعزاً وجاهاً.

● آن لك أن تتعزى بهؤلاء، وأن تعلم علم اليقين أن هذه الحياة سجن للمؤمن، ودار للأحزان والنكبات، تصبح القصور حافلة بأهلها، وتمسي خاوية على عروشها، بينما الشمل مجتمع، والأبدان في عافية، والأموال وافرة، والأولاد كثر، ثم ما هي إلا أيام، فإذا الفقر، والموت، والفراق، والأمراض، قال تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤٥].

● فالمسلم يوطن نفسه لكل ما يمكن أن يصيبه لأنه يعلم أنه في دار امتحان واختبار، وأن النتيجة هناك في دار البقاء حيث لا امتحان، ولا اختبار، ولا محن، ولا مصائب، ولا فتن، ولا كوارث، هناك حياة أبدية لا مرض فيها، ولا موت، بل سعادة أبدية مع الصالحين، ومع الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

- يردد دائماً قول الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤].

الثاني عشر- أن ينتظر المسلم الفرج من الله سبحانه وتعالى عند كل بلاء يصيبه مع حسن ظنه بالله وتوكله عليه، وعلمه أن أبواب التفريج من كل ضيق، وتنفيس كل كرب، وحلِّ كل عسير، والإحاطة بكل أزمة، وتيسير كل شدة، إنما هي بيد الله ﷻ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥-٦].

- عن الحسن في قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قال: خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك وهو يقول: «لن يغلب عسر يسرين ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾». [أخرجه الحاكم في المستدرك]

- وهذا ما أكده الله ﷻ في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق: ٧].

- قال سيدنا علي كرم الله وجهه: (عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء، ومع العسر يكون اليسر).

[الفرج بعد الشدة: التنوخي]

- تقول العرب: إذا اشتد الحبل انقطع.

- وقال أحد الشعراء:

دع المقادير تجري في أعنتها ... ولا تبيتن إلا خالي البالِ

ما بين طرفة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حال

● عليه أن يلتجأ إلى الله، وأن يفر إليه، وأن يعتصم بحبله، وأن يتضرع إليه، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠].

- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

● وأن يعلم أن الله وحده هو الذي يكشف ضره، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٧﴾ [الأنعام: ١٧].

- وهو على يقين بقوله سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل: ٦٢].

- وقوله ﷻ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

- قال الشاعر:

ولربَّ نازلة يضيق لها الفتى ... ذرعاً وعند الله فيها المخرجُ

ضاقت فلما استحكمت ... فرجت وكنتُ أظنها لا تفرجُ

- قال رسول الله ﷺ: «سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْله فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُحبُّ أَنْ يُسْأَلَ وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتظَارُ الْفَرَجِ». [أخرجه الترمذي عن عبد الله ﷺ]

الثالث عشر: ينبغي للمسلم أن يتعلم من النبي ﷺ ما يقول عند الكروب والشدائد والفتن والبلايا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَانَ يَقُولُ عنْدَ الْكَرْب: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَليمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ، وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ». [أخرجه البخاري]

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك ﷺ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتكَ أَسْتَغيثُ». [أخرجه الترمذي]

- عَنْ عَليِّ بْنِ أَبِي طَالب قَالَ لَقَّنَني رَسُولُ اللَّه ﷺ هَؤُلاَءِ الْكَلمَات وَأَمَرَني إِنْ نَزَلَ بِي كَرْبٌ أَوْ شدَّةٌ أَنْ أَقُولَهُنَّ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الْكَرِيمُ الْحَليمُ سُبْحَانَهُ وَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظيمِ وَالْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ». [أخرجه أحمد]

- وَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوب اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ».

[أخرجه أبو داود عن أبي بكرة ﷺ]

– وعَنْ أَسْمَاءَ بنْت عُمَيْسٍ قَالَتْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّه ﷺ:« أَلاَ أُعَلِّمُك كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ أَوْ فِي الْكَرْبِ اللَّهُ اللَّهُ رَبِّي لاَ أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

[أخرجه أبو داود]

– وقال ﷺ: «دَعْوَةُ ذي النُّون إذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوت لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ». [أخرجه الترمذي والحاكم]

– وقال النبي ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَداً قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلاَءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي. إِلاَّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجاً». قَالَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نَتَعَلَّمُهَا فَقَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا». [أخرجه أحمد عن عبد الله بن مسعود]

– وقال المصطفى ﷺ متعوذاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ».

[أخرجه البخاري عن أنس بن مالك]

– وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ». [متفق عليه]

● هذا وإن الدعاء بالاستغفار والتوبة هو دعاء آدم وحواء عندما أغواهما الشيطان: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فنالا التوبة والعفو من الله ﷻ تفريجاً لكربهما وما أحدثته معصيتهما:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٣٧].

● وعلى المؤمن دائماً أن يلجأ إلى الله عند البلاء بالإكثار من الاستغفار:

- فعن عَبْد اللَّه بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الاِسْتِغْفَارِ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ». [أخرجه أحمد]

جاء أعرابي إلى أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه، فقال: إني ممتحن، فعلمني شيئاً أنتفع به، فقال: يا أعرابي إن للمحن أوقاتاً، ولها غايات، فاجتهاد العبد في محنته، قبل إزالة الله تعالى إياها، زيادة فيها، يقول الله ﷻ: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزمر: ٣٨]، ولكن، استعن بالله، واصبر، وأكثر من الاستغفار، فإن الله ﷻ وعد الصابرين خيراً، وقال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فانصرف الرجل، فقال أمير المؤمنين رضي الله عنه:

إذا لم يكن عون من اللّه للفتى   فأوّل ما يجني عليه اجتهاده

[الفرج بعد الشدة للتنوخي]

● وعن عبد الله بن أحمد بن داسه البصري (وهو أحد الأولياء والصالحين) قال: اعتللت علة شديدة، أيست فيها من نفسي، على شدة كنت فيها، فعادني بعض أصحاب أبي محمد سهل بن عبد الله التستري، فقال: كان أبو محمد سهل، يدعو الله في علله، بدعاء ما دعا به أحد إلا عوفي، فقلت: وما

هو؟ فقال: قل: اللهم اشفني بشفائك، وداوني بدوائك، وعافني من بلائك، قال: فواصلت الدعاء بذلك، فعوفيت. [الفرج بعد الشدة للتنوخي]

الرابع عشر: ينبغي للمسلم أن يحسن علاقته مع الله ﷻ قبل البلاء، وأثناء البلاء، وبعد البلاء، وخاصة عندما يزيل الله عنه البلاء، ويستبدله بنعماء، فينبغي أن لا يقع في أخطاء كثيرة من أخطاء الناس الذين لا يحسنون التصرف في مثل هذه المواقف، كما وصفهم الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة منها قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

- وقوله ﷻ: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

- وقوله جلا وعلا: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر: ٤٩].

- وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

- وقوله جل جلاله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ

أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

على حرف: على شك، وضمن مصلحة خاصة.

الخامس عشر: إذا كانت الفتنة عامة فأصابت أكثر الناس، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

● فينبغي للمسلم إلى جانب ما تصرف في الفتنة الخاصة، فإنه في هذه الحالة يكثر من عبادة الله ﷻ، والرجوع إليه عملاً بوصية النبي ﷺ: «عبادةٌ فِي الْهَرْجِ، أَوِ الْفِتْنَةِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ». [أخرجه مسلم عن معقل بن يسار رضي الله عنه]

– قال الإمام النووي رحمه الله المراد بالهرج هنا: (الفتنة، واختلاط أمور الناس).

● هذا وأمر النبي ﷺ المسلم أن يكثر من العبادة في الهرج حيث إن الناس يغفلون وينشغلون عنها، والمقصود بالعبادة بكل أشكالها من فرائض وسنن ونوافل ومستحبات.

– كذلك فإن النبي ﷺ ينبهنا عند الفتن بأن نضبط لساننا عن الكلام، حتى لا نندم مما قلناه، قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْفِتَنَ فَإِنَّ وقع اللِّسَانِ فِيهَا مِثْلُ وَقْعِ السَّيْفِ». [أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر]

● كما أن النبي ﷺ يدلنا على طريق النجاة عندما تكون الفتن شديدة لا يستطيع المؤمن فيها أن يرد الظلم أو أن يقدر الخير فيكثر القتل والظلم حتى لا يستطيع المسلم أن يفعل شيئاً أبداً وتحاصره الفتن من كل جانب، ولا يستطيع

أن يقدم أي شيء فينبغي له أن يعمل بوصية النبي ﷺ التي وجهها للصحابة الكرام ﵃ بعد أن تحدث لهم عن شدة الفتن التي تقع على هذه الأمة، وتصف حالهم وما بلغوا إليه وما سيقع عليهم فلابد لهم من سفينة النجاة تنقذهم من هذه الفتن الشديدة وجزى الله عنا الصحابي الجليل عقبة بن عامر الذي سأل النبي ﷺ ما النجاة يا رسول الله ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ». [أخرجه الترمذي]

۞ ۞ ۞

مناجاة:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع — أنت المُعَدُّ لكل مـــا يتوقـــع

يا من يرجى للشدائد كلـــها — يا من إليه المشتكى والمفـــزع

ما لي سوى قرعي لبابك حيلة — فلئن رددت فأي باب أقـــرع

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة السادسة

الفتن العامة

● قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ١-٢].

● من قانون الله ﷻ البلاء والاختبار في هذه الدنيا، ومن حكمة البلاء أن يميز الله الخبيث من الطيب، ومن هو أهل للجنة أو هو أهل للنار، ومن هذا البلاء والامتحان فتن تحدث عبر الزمان وهي على نوعين: فتنة خاصة تصيب الإنسان دون غيره، وفتنة عامة تصيبه مع مجتمعه، وفي كلا النوعين يراجع المؤمن نفسه عند حدوثهما فإن وجد نفسه مهملاً واجباته تجاه ربه غافلاً عن أوامر الله ﷻ، مستهتراً بتطبيق شرع الله، مدبراً عن أخلاق وسلوك سنة رسول الله ﷺ اعتبر هذا المسلم أن هذه الفتنة عقوبة له، فحاسب نفسه، وتاب إلى الله ﷻ وأناب، وأعاد الحقوق للآخرين، وعاهد الله على الاستقامة واليقين، سائلاً الله ﷻ أن يزيل هذه الفتنة عنه وعن الآخرين.

● أما من وجد نفسه على استقامة مع ربه وشرعه وقرآنه وسنة نبيه ﷺ عرف أن هذه الفتنة وما أصابه منها إنما هي امتحان له فرضي وصبر، أو أنها رفع للدرجات ومحي للسيئات وزيادة للحسنات فرضي وشكر.

● عند حدوث فتنة عامة على كامل المجتمع، قد يتساءل المؤمن لماذا وقعت الآثار السيئة لهذه الفتنة عليَّ -مع أني على استقامة مع ربي وأؤدي حقوق الله ﷻ وأعمل بأوامره وأنتهي بنواهيه-.

– **الجواب** لهذا المؤمن في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

– تعالوا لنتمعن ونفهم هذه الآية فهماً دقيقاً قول ﷻ:

وَٱتَّقُواْ: ويجب أن يكون الحذر قبل وقوع الفتنة باجتنابها والابتعاد عن كل ما يدعو لها ويثيرها، أما الحذر أثناء حدوث الفتنة بألا ننغمس في مصدرها، ونكون سبباً فيها أو مشاركين لها، أو المساعدين.

قوله ﷻ: وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً إلا أن الفتنة هنا هي أشد وأعم وأعظم من البلاء والامتحان والمصائب، فكل هذه الأمور قد تكون خاصة بالأفراد وقد تكون عامة، إلا أن الفتنة تكون عامة، بين الله جل جلاله ذلك بقوله: **لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ۖ** فهي تصيب الظالم والمظلوم بشرارها وأذاها ومصائبها.

أما الظالم فتكون إصابته حتمية جزاء من الله على ظلمه، وتكون في الدنيا والآخرة وبعذاب شديد من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ** ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

– في هذه الآية تنبيه لجميع خلقه ألا يفكر أحدهم ولا يظن بأن الله غافلاً عن الظالمين، فلهم عذابهم في الدنيا والآخرة، ولئن بينت هذه الآية أن تأخيرهم إلى يوم القيامة، فلا يعني ذلك أن الله لن يعذبهم في الدنيا، فإن مصيرهم في الدنيا عندما يأتي حكم الله عليهم وعدله سيكون شديداً تشخص فيه الأبصار في الدنيا وكذلك في الآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤].

– فالظالم مهما تجبر وتكبر وتعالى وتعاظم وقوي واقتدر، فإن قانون الله ﷻ بأنه لابد أن يكون لظلمه نهاية، ولابد أن ينال جزاء ظلمه وأعماله في الدنيا جزاءً لا مثيل له وعقاباً لا حد له، ليكون ذلك عبرة لغيره ونصرة للمظلوم وأخذاً لحقه، وأما في الآخرة، فالجزاء من نفس العمل جهنم يصلاها بعد الذل الذي سيكون عليه في يوم القيامة أثناء حشره وسوقه إلى الحساب وأثناء الحساب وحسابه أمام جميع الخلق ثم منتهاه إلى نار جهنم خالداً فيها.

– هذا الظالم لم يفكر يوماً في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥].

– هناك يتردد قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس: ٥٢].

– وأن مصيرهم في الدنيا والآخرة، الخذلان والهوان تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

أما المظلوم: فإن الفتنة العامة إن أصابته فإنما تصيبه بأقدار الله عليه لحكمة يريدها ﷻ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١].

– وإصابة المظلوم بأقدار الله ﷻ في هذه الفتنة تختلف أيضاً من مظلوم لآخر تختلف في هيأتها وكميتها وحجمها، ومع كل ذلك فكثير من هؤلاء المظلومين مع رضاهم بقضاء الله وصبرهم عليه، يسألون ما سبب وقوع هذه الفتنة علينا؟

الجواب: إن لها أسباباً كثيرة، ولعل بعضها إهمال المظلومين لحق الله ﷻ عليهم، كما بين ذلك النبي ﷺ فيما أطلعه الله عليه: «كيف أنتم إذا طغى

نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم»؟ قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون». قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف و لم تنهوا عن منكر؟» قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون». قالوا: وما أشد منه؟ قال: «كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً»؟ قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون». قالوا وما أشد منه؟ قال: «كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف»؟ قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون»، يقول الله تعالى: بي حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران».

[أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف عن أبي أمامة ﵁]

- إن المؤمن المظلوم الذي وقع عليه الظلم في الفتنة العامة فأثرت عليه تأثيراً كبيراً غير حاله إلى أسوأ حال، وقد يكون قد خسر بيته أو ماله وأملاكه أو عمله أو شغله، فتغير كل شيء في حياته، هذا المظلوم يحب ويتمنى ويسعى ليعود إلى حاله وما كان عليه.

- ولكن كيف السبيل لتحقيق ذلك؟

الجواب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

- وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

● إذاً قانون الله في التغيير هو أن يغير المؤمن أحواله السابقة قبل الفتنة وما كان عليه من غفلة عن أداء حقوق الله بأحوال أخرى يسعى بها إلى الله ﷻ للتقرب منه والتمسك بتعاليم القرآن الكريم وسنة نبيه ﷺ والالتزام بشرعه وأوامره والانتهاء عن نواهيه.

● تعالوا بنا جميعاً نغير واقعنا مع الله:

أولاً– بمحاسبة أنفسنا.

ثانياً– بالتوبة من معاصينا.

ثالثاً– بالبعد عن غفلاتنا.

رابعاً– بإرجاع الحقوق إلى الآخرين.

خامساً– بالسعي إلى بر الوالدين وصلة الأرحام.

سادساً– بالتخلق بأخلاق الإسلام، وسلوك أخلاق النبي العدنان ﷺ.

سابعاً– بالدعاء إلى الله والالتجاء إليه، والوقوف على بابه، وأن ندعو فنقول: يا رب غير حالنا إلى أفضل حال وأعد علينا الأمان والاطمئنان، واحفظ بيوتنا وعمر ما تخرب منها، وهيئ لنا من أمرنا رشداً، واعد علينا أموالنا بمنتك وفضلك وإحسانك وكرمك، وأرح بالنا وأعدنا على صالح أعمالنا، سامحنا يا رب واغفر لنا، وكن معنا ولا تكن علينا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وفرج عنا ما أغمنا وأهمنا، وأزل هذا البأس عنا، وأذهب الغمة عن هذه الأمة.

– عن عمير بن عبد الله قال: خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة، قال: كنت إذا سكتُّ عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألته عن

الخبر أنبأني، وإنه حدثني عن ربه، عَجَلَّ، قال: «قال الرب: وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهتُ من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي».

[تفسير ابن كثير وجامع الأحاديث القدسية]

● **من واجبات المؤمن في الفتن العامة:**

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

● من المعلوم أن كل إنسان في هذه الدنيا سيمر على امتحان رباني، وبلاء مقدر من الله عَجَلَّ، لتظهر حقيقة الإنسان فيما يختاره من ضلال أو إيمان، لتتبين حقيقة استحقاقه في الآخرة جنة أو نار، قال تعالى:

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ [الملك: ١-٢].

● وهناك امتحان وبلاء واختبار من الله جَلَّالَهُ يأتي عامة لفئة من الناس كافة أو بلد من البلاد، وهي فتنة يفتتن بها الله عَجَلَّ الناس لأسباب متعددة منها:

١- طغيان الشر وانتشاره، وضعف الخير وسكوته.

٢- لحكمة يريدها الله عَجَلَّ يختبر بها الله الناس لتظهر حقيقة الإيمان من قوة أو ضعف، وإظهار المنافقين والفاسقين على وضوح وحقيقة.

٣- ولحكمة يريدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاختبار المؤمنين بشتى أنواع الامتحانات، ليظهر صبرهم ورضاهم عنه، وينالوا زيادة الحسنات ومحو السيئات ورفع الدرجات.

٤- لحكمة ربانية يتحقق بها قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٧] ولحكمة ربانية يُكشف فيها مدى قدرة المؤمن على حسن التصرف عند الفتن والمصائب.

● **فما واجبات المؤمن عندما تأتي المحن الكبرى والفتن العظمى؟**

أولاً- أن يحسن التصرف في هذه الفتنة فيما يجب أن يفعله تجاه نفسه وأهله ورحمه بألا يظهر خوفاً أو سوء أخلاق أو ضجر أو شكاية وأن يهدأ من روع من حوله .

ثانياً- أن يتصف بالرضا عن قدر الله جَلَّ جَلَالُهُ والصبر عليه.

ثالثاً- أن يعمق ثقته بالله عَزَّ وَجَلَّ، وأن لا ملجأ من الله إلا إليه، فيكثر من الالتجاء إليه بالدعاء والمناجاة والأوراد التي ذكرت في مثل هذه الفتن، ويحصن نفسه وأهله ومن حوله بالأدعية التي وردت عن الأنبياء والمرسلين المذكورة في القرآن الكريم، وبالأدعية النبوية المتعددة وأدعية الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان والأولياء والصالحين.

مع التأكيد على الاستيقاظ في ساعات السحر، ساعات التنزل الربانية بالنفحات الإلهية، ساعات النداء الإلهي التي تحدث عنها النبي ﷺ: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ». [أخرجه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ]

● وما أجمل أن يشجع المسلم أهله وأرحامه وجيرانه ومعارفه على القيام في هذه الساعات، فتجتمع قلوب المسلمين علها تستمطر رحمات الله عَزَّ وَجَلَّ ليرفع الله عَزَّ وَجَلَّ عن الأمة الغمة، ويلطف بالبلاد والعباد في برنامج جماعي:

- **يستغفرون الله** مائة مرة بقلوب ندية، وأعين دامعة، والتجاء صادق إلى الله ﷻ أن يسامحهم فيما اخطؤوا وأذنبوا وغفلوا، لتكون بداية مناجاهم لله صدق توبة ورجوع إليه.

- ثم مائة مرة **يا لطيف** بأن تلتجئ هذه القلوب بهذا الاسم ليلطف الله بهم فيما جرت به تقاديرهم.

- ثم مائة مرة **حسبنا الله ونعم الوكيل**، لتقوى قلوب المؤمنين بالثقة بالله، والالتجاء إليه وحسن الظن به، وإقرار بالضعف، واعتماد على الله في رفع هذه الفتنة، واللطف بالبلاد والعباد.

- ثم **صلاة التهجد** حتى الفجر على أن تلتقي جميع قلوب المؤمنين في تلك الساعة بالدعاء إلى الله بأدعية الحاجات لكشف المهمات (دعاء السحر).

رابعاً- أن يؤدي واجباته تجاه الآخرين بقدر ما يستطيع من كلمة طيبة أو ابتسامة محببة أو مساعدة للآخرين في جميع متطلباهم وواقعهم الذي وصلوا إليه من إيثار وبر وصدقة وصنيعة معروف.

۞ ۞ ۞

مناجاة:

إذا اشتملت على النَّاس الخطوب — وضاق لما به الصَّدر الرَّحيب
وأوطنت المكاره واطمأنَّت — وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانفراج الضِّيق وجهاً — وقد أعيى بحيلته الأريب
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ — يمنّ به الَّلطيف المستجيب
وكلُّ الحادثات إذا تناهت — فموصولٌ بها الفرج القريب
ومولانا الإله فخير مولى — له إحسانه ولنا الذُّنوب

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة السابعة

الالتجاء إلى الله في المحن

● قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

● عندما يقع بلاء كبير على الناس لا يملكون فيه لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا طرداً ولا بعداً، بلاء كبير ومحنة عظيمة تهبط هبطاً عليهم دون أن يتهيؤوا لها أو يفكروا بها، ودون أن يستشاروا بها أو يكن لهم يد بها، ويكون لها آثار سيئة شديدة الوقوع عليهم، فيها ظلم، وفيها قتل، وفيها هدم، وفيها فقد، وفيها ألم شديد، وفيها سلب للأموال والأعراض وفراق للبيوت والجيران والخلان، وقلة في العيش والموارد والطعام والشراب، وفيها ذل وقسوة وتحمل لا تتحمله الجبال، ولا يستطيع الإنسان دفع شيء فلا رأي ينفع، ولا عمل يوقف، ولا مصير يحدد، ولا عقل يفكر، عند ذلك فإن الناس ينقسم إلى قسمين:

- قسم يغفل عن الله يعيش بألم المصاب، وهوان الذليل، مع سخط وكفر ويأس وقنوط وحيرة تذهب بالألباب والعقول وتدمر العقول والنفوس، فلا يعلمون ما يفعلون، ويفعلون ما لا يعرفون فيه خير أم شر، يتخبطون في تصرفاتهم وأحوالهم لا ينتظرون فرجاً ولا يأملون حلاً.

- وقسم آخر: وهم من وفقهم الله إلى الإيمان وتيقنوا بالله ﷻ الرحيم الرحمن، وأن ما أصابهم هو قضاء منه وقدر، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، وأَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ

بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، هؤلاء المؤمنون عندما يجدون أنفسهم أن البلاء قد حل عليهم بكل شدة وألم لا يستطيعون دفع أمر قد وقع، وقد أصبحوا عاجزين عن عمل أي شيء، عند ذلك يعلمون أن هناك باباً يسرعون إليه ويتجهون إليه ويقرعونه ألا وهو باب الله ﷻ الذي لا يسد بابه، ولا يحجب عنه من التجأ إليه، وهم على يقين إيماني أنه لا يرفع المصائب والفتن والبلايا والامتحان، وما يخططه الإنس والجان إلا الله ﷻ فكان لابد من الالتجاء إليه لتحقيق الفرج من عنده، وتغيير حال الامتحان والبلوى إلى حال الفرج والسلوى، مرددين قول الله ﷻ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

- واضعين نصب أعينهم ما أصاب أيوب من الامتحانات الكثيرة والأمراض الموجعة والحالات الصعبة فما وجد للفرج إلا ذاك السبيل وذاك الباب العظيم قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

- كذلك في حالة النبي ذي النون يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

● وإن لنا في قدوتنا العليا وأسوتنا الحسنى سيدنا محمد ﷺ ما يشرح لنا الطريق، ويوضح لنا السبيل في مثل هذه الحالة التي نعيشها، ومن الأمثلة الرائعة في ذلك أنه ﷺ لاقى وأصحابه من قريش ما لاقاه من التكذيب والسب والشتم والمعاناة والتهجير والتنكيل ومحاولات القتل.

● فقد خرج النبي ﷺ إلى الطائف عله يجد من يستمع إلى هديه وإرشاده للخير، ولكن أهل الطائف قابلوه بأسوأ مقابلة وأشدها عنفاً، وأرسلوا وراءه الغلمان والأطفال يسبوه ويشتمونه يضربوه بالأحجار حتى يدموه، فماذا فعل، لم يعد يستطيع السير جلس إلى ظل شجرة لم يصبه اليأس والقنوط لأنه يعرف أن هناك باب الله الذي لا يغلق باب الله الذي يغير الأحوال لمن عرفه وطرقه ووثق به ووقف عنده ولمن بكى وشكى، تعالوا لنستمع لحديث النبي ﷺ مع الله ﷻ في هذا الموقف العصيب ليكون لنا نبراساً في حياتنا نردده من أعماق قلوبنا عندما تقسو علينا الحياة، وعندما يظلمنا الناس، وعندما لا نستطيع أن نفعل شيئاً أمام ما يواجهنا من ظلم وإساءة، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً، تعالوا لنردد قول النبي هذه المناجاة بكل أمل وتفاؤل باستجابة الدعاء وتفريج الكروب وتحقيق الآمال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري إن لم تكن ساخطًا عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك أو يترل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

[أخرجه الطبراني في السنة عن عبد الله بن جعفر ﵁]

● هذا الدرس الذي فيه مواجهة لصعوبات الحياة تعلمه الصحابة الكرام، فكانوا يلتجئون إليه في كل محنة يقعون بها، فقد روى أنس ﷺ أنه: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق، وكان يتجر بمال له ولغيره يضرب به في الآفاق، وكان ناسكاً ورعاً، فخرج مرة فلقيه لص مقنع بالسلاح فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك، قال: ما تريد إلا دمي شأنك بالمال، قال: أما المال فلا فلست أريد إلا دمك، قال: أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات، قال: صل ما بدا لك، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات وكان من دعائه في آخر سجدة أنه قال: يا ودود يا ذا العرش المجيد، يا فعالاً لما تريد، أسألك بعزك الذي لا يرام، وملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، ثلاث مرات قال: دعا بها ثلاث مرات فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة واضعها بين أذني فرسه، فلما أبصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه فقال: قم، قال: من أنت بأبي أنت وأمي فقد أغاثني الله تعالى بك اليوم؟ قال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوت الله بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجيجاً، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل: دعاء مكروب، فسألت الله ﷻ أن يوليني قتله، قال أنس: فاعلم أنه من توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أم غير مكروب. [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة]

● ينبغي للمسلم أن يتعلم من النبي ﷺ ما يقول عند الكروب والشدائد والفتن والبلايا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ

الْعَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ، وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

[أخرجه البخاري]

– وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك ﷺ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ». [أخرجه الترمذي]

– وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالب قَالَ لَقَّنَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ هَؤُلاَءِ الْكَلِمَات وَأَمَرَنِي إِنْ نَزَلَ بِي كَرْبٌ أَوْ شِدَّةٌ أَنْ أَقُولَهُنَّ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الْكَرِيمُ الْحَلِيمُ سُبْحَانَهُ وَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

[أخرجه أحمد]

– وَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ».

[أخرجه أبو داود عن أبي بكرة ﷺ]

● في جزر القمر وهي جزر بركانية يحدث فيها انفجار البراكين كل اثني عشر عاماً حسب ما توصل إليه العلم الحديث وفي أحد المرات وقبل انفجاره بسبعة أشهر سجل جهاز رصد البراكين أن بركاناً شديداً سينفجر يوم (كذا) وأسرع المتخصصون من الفرنسيين إلى جزر القمر، وحين وصلوا سمعوا أصواتاً، فلما سألوا عن مصدر الأصوات، قيل لهم: إن هذه أصوات المسلمين في المساجد حين علموا بقرب انفجار البركان، أسرعوا إلى بيوت الله يطلبون العون من الله، فيكثرون الاستغفار والتضرع والبكاء والذكر بأن يصرف الله عنهم شر هذا البركان، فقال رئيس المهندسين مستهزأ: وهل يصرف هذا البركان المحقق الوقوع؟

قالوا له: نعم يصرف بعون الله، قال: كيف يصرف؟ قالوا: بقدرة الله تعالى، ونحن مؤمنون بها.

فقال لهم: إذا لم يتفجر البركان غداً في موعده وصرف كما تقولون، فأنا أعلن إسلامي أمامكم.

وجاء الغد وانتظروا انفجار البركان، وجاء الموعد ومضى و لم يتفجر البركان، وإذا به يؤمن بهذا الدين ويعلن إسلامه أمام الناس، حين رأى الحق، وحين رأى قدرة الله العظمى في صرف أمر محقق الوقع جراء دعاء المؤمنين وتوسله إليه ﷻ، وهذه الحادثة معروفة ومشهورة بين أهل جزر القمر. فهلا عرفنا حقيقة الله وقدرته وتحقيق فرجه فوقفنا على بابه واثقين به باكين داعين...

۞ ۞ ۞

دعاء أبي الدرداء رضي الله عنه:

- عن طلق قال: جاء رجل إلى أبي الدرداء فقال: يا أبا الدرداء احترق بيتك قال: ما احترق بيتي ثم جاء رجل آخر فقال: يا أبا الدرداء احترق بيتك، قال: ما احترق ، ثم جاء رجل آخر فقال: يا أبا الدرداء انبعثت النار، فلما انتهت إلى بيتك طفئت. قال: قد علمت أن الله ﷻ لم يكن ليفعل. قالوا: يا أبا الدرداء ما ندري أي كلامك أعجب، قولك: ما احترق، أو قولك: قد علمت أن الله ﷻ لم يكن ليفعله، قال ذاك لكلمات سمعتهن من رسول الله ﷺ، من قالها أول النهار لم تصبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالها آخر النهار لم تصبه حتى يصبح: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش الكريم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر**

كل ذي شر، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم». [أخرجه البيهقي في دلائل النبوة وابن عساكر والديلمي]

- وزاد ابن السني: (**لم يصبه في نفسه ولا أهله ولا ماله شيء يكرهه**).

۞ ۞ ۞

دعاء أنس بن مالك:

- قال أنس بن مالك رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من دعا بهذا الدعاء كل صباح لم يقدر أحد على أذيته، و لم يكن لأحد عليه سبيل».

بسم الله الرحمن الرحيم.. بسم الله وبالله.

بسم الله خير الأسماء.. بسم الله رب الأرض والسماء.

بسم الله الذي لايضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء أذى.

بسم الله فتحت وبالله اختتمت وبه آمنت.

بسم الله أصبحت، وعلى الله توكلت.

بسم الله على قلبي ونفسي. بسم الله على عقلي وذهني.

بسم الله على أهلي ومالي. بسم الله على ما أعطاني ربي.

بسم الله الشافي. بسم الله المعافي بسم الوافي.

بسم الله الذي لايضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

هو الله الله.. الله الله.. الله ربي لا أشرك به شيئاً.

الله أكبر كبيراً.. الله أكبر الله أكبر. وأعز وأجل مما أخاف وأحذر.

أسألك اللهم بخيرك من خيرك الذي لا يعطيه غيرك. عز جارك، وجل ثناؤك، لا إله غيرك.

اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي. ومن شر كل شيطان مريد، ومن شر كل جبار عنيد، ومن شر كل قضاء سوء، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦].

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: ٥٧].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦].

اللهم إني أستجيرك، وأحتجب بك من كل شيء خلقته، وأحترس بك من جميع خلقك، ومن كل ماذرأت وبرأت. وأحترس بك منهم وأفوض أمري إليك، وأقدم بين يدي في يومي هذا وليلتي هذه، وساعتي هذه، وشهري هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ عن أمامي.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ من فوقي.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ عن يميني.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ عن شمالي.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ونحن على ما يقول ربنا من الشاهدين.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ سبع مرات.

[أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة برقم (٣٤٦) من حديث أبان بن أبي عياش عن أنس في أرشيف ملتقى أهل الحديث ص١٧٠٣٢ والحديث ضعيف]

۞ ۞ ۞

من دعاء الأولياء والصالحين في أوقات الشدة والمحن:

اللهم إليك أنبنا، وعليك اعتمدنا، وإليك سجدنا، يا مطلعاً على حالنا، يا عارفاً بحالنا، يا من لا يغيب عنه حالنا، يا مقدراً لحالنا، يا رب أصبح حالنا في أسوء حال، يا رب ضاق الحال فوسعه، نرجوك يا رب أن تتفضل علينا بتغيير حالنا إلى أفضل حال تحبه لنا وترضاه.

- يا رب إلى من نشكو حالنا إلى قريب ملكته أمرنا أم إلى بعيد يتآمر علينا، إن لم يكن بك غضب علينا فلا نبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لنا.

- يا سابغ النعم، يا دافع النقم، يا كاشف الغمم، يا أعدل من حكم، يا حسيب من ظَلم، يا ولي من ظُلم، يا من أمرك بين الكاف والنون إذا

أردت أمراً فإنك تقول له كن فيكون، اكشف عنا من الغلاء والبلاء وسوء القضاء وتسلط الأعداء وشماتة الحساد ما لا يكشفه أحد سواك.

– اللهم فارج الهم، كاشف الغم، مجيب دعوة المضطرين، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمنا فارحمنا برحمة تغننا بها عن رحمة من سواك، وتسعدنا بها في الدنيا والآخرة.

– اللهم إن بالعباد والبلاد من اللأواء والجهد ما لا نشكوه إلا إليك ولا يكشفه أحد إلا سواك.

– اللهم لا تخيبنا ونحن نرجوك، ولا تعذبنا ونحن ندعوك.

– اللهم إنا نعوذ بك من شماتة الأعداء، وعضال الداء، وخيبة الرجاء.

– اللهم أنت غياثنا فبك نغوث، وأنت ملاذنا فبك نلوذ، وأنت عياذنا فبك نعوذ.

– اللهم احقن الدماء، واشف المرضى، وداوِ الجرحى، وارحم الموتى، وصبر المبتلى، واحفظ علينا أنفسنا وأهلينا، وأموالنا وأعراضنا، وبيوتنا وجميع أعمالنا، وفك أسر المأسورين، وأحسن خلاص المسجونين، ورد الغائبين إلى أهليهم رداً جميلاً، والطف بالبلاد والعباد، واكشف الغمة عن هذه الأمة.

– يا من ذلت له رقاب الجبابرة، وخضعت له أعناق الفراعنة، نعوذ بك من خزيك، وكشف سترك، ومن نسيان ذكرك والانصراف عن شكرك، ومن الالتجاء إلى غيرك، أو الوقوف على باب عبادك.

– اللهم اجعلنا في حرزك مع جميع أهلنا في ليلنا ونهارنا، ونومنا وقرارنا، وظعننا وأسفارنا.

- اللهم ذكرك شعارنا، وثناؤك دثارنا، لا إله إلا أنت تعظيماً لوجهك، وتكريماً لسبحاتك، أجرنا من خزيك، ومن شر خلقك، وأكرمنا بحفظك، وأدخلنا في حفظ عنايتك، وعد علينا بخير منك يا أرحم الراحمين يا ذا الجلال والإكرام، ويا ذا الطول والإنعام.

وصلى الله على خير الأنام وعلى آله وصحبه وسلم.

۞ ۞ ۞

من دعاء أهل السلف:

حكى الشيخ شهاب الدين، أن بعض السلف كان يدعو عقب صلاته، ويقول: اللهم إنا نعوذ بك من عظيم البلاء في النفس والأهل والمال والولد، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر مما نخاف ونحذر. الله أكبر الله أكبر، عدد ذنوبنا، حتى تغفر اللهم، كما شفّعت فينا نبينا محمد ﷺ فأمهلنا، وعمر بنا منازلنا، ولا تؤاخذنا بسوء أفعالنا، ولا تهلكنا بخطايانا يا رب العالمين.

[بدائع السلك في طبائع الملك ابن الأزرق]

۞ ۞ ۞

مناجاة:

مولاي ضاقت بي الأرجاء خذ بيدي
ما لي سواك لكشف الضر يا سندي
حسبي الوقوف بباب الذل منكسراً
أمرغ الخد في الأعتـــاب لم أحـــدِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الثامنة

حكم الله في المحن

● قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

حكم الله كثيرة في المحن التي يمتحن بها عباده، ومن هذه الحكم امتحان الخلق في المحن التي تصيب الفرد أو المحن الكبرى التي تصيب جميع أفراد المجتمع الظالم والمظلوم، والفاسد والصالح، والمجرم والبريء هي حكمة التمييز التي قال الله تعالى عنها: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧].

● المحن الكبرى امتحان من الله ﷻ، وبلاء يعم الخلق، فيظهر الخلق على حقائقهم، وتتوضح سرائرهم، وتستبان خفاياهم، وينكشف ما ستر منهم، ويميز الله الخبيث من الطيب، وينال كل إنسان نتائج امتحان الله له في الدنيا والآخرة، ويعوض الله ﷻ أهل الطيب والخير والإيمان خيراً عما افتقدوه، ويبدلهم بأحسن ما سألوه، وتزول عنهم المحنة، وتشرق أيامهم حياة سعيدة رغيدة هانئة.

● كما ينال أهل الخبث سوء خبثهم في الدنيا قبل الآخرة بأسوأ ما كانوا يفعلون ويأملون ويخططون ويسعون.

● كان أول امتحان الله ﷻ لعباده وبلائه في خلق آدم، حيث ظهرت حقيقة إبليس في تكبره وتجبره وأنانيته، حيث قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: ٧٦].

● فكان أثر هذا البلاء أن أصبح إبليس الذي كان يدعى طاووس الملائكة، أصبح شر خلق الله جميعاً.

● وفي امتحان الله وبلائه لولدي آدم ظهرت حقيقة حب الشهوة، فقتل قابيل أخاه هابيل لأجل هذه الشهوة.

● وامتحان الله وبلائه في إرسال الأنبياء والمرسلين أن يظهر الإيمان والكفر بين الناس، وامتحان الله وبلائه لأهل قريش ومن جاورهم من العرب في نبوة النبي ﷺ أن فرزت الناس إلى مؤمنين ومنافقين وكافرين، فأعز الله ﷻ أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة الكرام ﷺ، وأذل الله أبا لهب وأبا جهل وأمية بن خلف وغيرهم مع أنهم كانوا من أسياد قريش.

● وعلى مر الأيام والسنين يبقى هذا الامتحان والبلاء يميز الناس، فيظهر حقائقهم بين ظالم ومظلوم، وبين فاسد ومصلح، وبين أشرار وخيرين، وهكذا إلى أن تقوم الساعة، ويرث الله الأرض ومن عليها، ووراء هذا التمييز الحساب والجزاء والاستحقاق في الدنيا والآخرة كل على حسبه وحقيقته التي كشفت عنه.

● هناك مقولة بين الناس، تقال عندما يمسك أحدهم كأساً من الماء قد مُلئ نصفه، هذه المقولة أن هناك رأيان في النظر إلى الكأس، نظرة شؤم فيرون القسم الفارغ من الكأس، ونظرة تفاؤل فيرون القسم الممتلئ منه، وهذا المثال ينطبق

على من ينظر إلى المحن الكبرى وما فيها من بلايا ومصائب وفتن، فيمكن أن ينظر الإنسان إليها بإحدى النظرتين إما نظرة التفاؤل وإما نظرة التشاؤم.

● المسلم المؤمن قوي الصلة بالله ﷻ، والمراقب له، والعارف به، والواثق به، دائماً ينظر للأشياء بنظرة التفاؤل، بينما غيره ينظر إليها نظرة التشاؤم والتعاسة والشقاء.

● وإذا كنا أحياناً نرى الواقع السيء، والمواقف المؤلمة عند الامتحانات والفتن وما أكثرها، وحديث الناس عنها واضطرابهم فيها والتشاؤم في حلها، فإننا يجب أن ننظر إليها أيضاً من زاوية أخرى.

● فإن كنا نرى ما يفعله أهل الاستغلال والاحتكار وعديمي الأخلاق في طريقة التعامل مع المحتاجين عند معاملتهم لهم في قيمة الآجار أو الغلاء في البيع، هؤلاء لا ينظرون إلى ما منّ الله عليهم من نعم، أن الله لم يصبهم بما أصاب هؤلاء، فيغفلون عن أن الله ﷻ قد يحل بهم ما حل بغيرهم، هؤلاء لا يشعرون إلا بذاتهم، ولا يتصرفون إلا من خلال أنانيتهم وشهواتهم وحبهم لجمع المال دون النظر في موضوع الحلال والحرام، فإن كانت تلك الأعمال السيئة السلبية وغيرها نراها على الكثيرين ممن حولنا أو ممن يجلسون معنا في مساجدنا، فعلينا أيضاً أن ننظر نظرة تفاؤل وإيجابية لتصرفات أناس آخرين، فهناك أناس شغلوا أنفسهم في هذه المحنة في خدمة المحتاجين والمنكوبين، وهم يجدون لذة في إسعاد الآخرين وإدخال السرور عليهم، بعض هؤلاء قدم بيتاً له فارغاً غير مشغول قدمه لهؤلاء المنكوبين بدون آجار، بل بعضهم قدم لمثل هؤلاء نفقات الطعام والشراب، بل وساعدهم في المال لشراء ما يحتاجون، وصدق من قال: (الدنيا إذا خليت من الخير بليت وفنيت).

● إن كثيراً من أهل الشام والحمد لله اشتهروا بمثل هذا الأعمال الإيجابية فالكثير منهم يبحثون عن المحتاجين فيسرعون إليهم لتقديم كل ما يحتاجونه لسترهم وستر عوائلهم، فلا يتركونهم لعوزهم أو مد أيديهم للآخرين، فيحفظون ماء وجوههم وما ذاك إلا رغبة منهم في إرضاء الله ﷻ، ومن جهة أخرى يفعلون ذلك ليودعوا هذه الأعمال الصالحة في مشروع التأمين الإلهي لحمايتهم من السوء والشر والفتن والامتحانات ورفع الضرر عنهم، وتخفيف الأقدار الإلهية عنهم، يرددون دائماً قول النبي ﷺ: (صدقة السر تطفئ غضب الرب، وصدقة العلانية تقي ميتة السوء، وصنائع المعروف إلى الناس تقي صاحبها مصارع السوء: الآفات والمهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، والمعروف ينقطع فيما بين الناس، ولا ينقطع فيما بين الله وبين من افتعله). [أخرجه البيهقي في شعبه عن أنس بن مالك رضي الله عنه وسنده ضعيف]

● وأمثال هؤلاء كثيرون وأعمالهم في الخير أكثر من أن تعد، بل الله يلهمهم للمسارعة في الخيرات، وأن يكونوا قدوة للآخرين في أعمال الخير، كما حدث مع صحابة رسول الله ﷺ:

– عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي (لابسين) النِّمَارِ (كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب) أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]، وَالآيَةَ الَّتِي فِي

الْحَشْرِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ -حَتَّى قَالَ- وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ -قَالَ- ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ». [أخرجه مسلم]

● من الدروس المستفادة في الفتن الكبرى عند المؤمنين الصادقين أن هذه المحنة تكون سبباً لإزالة الغفلات عن هؤلاء المؤمنين الصادقين تلك الغفلات التي كانت سبباً في التقصير في حق الله، وأداء الشكر على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فقد يغفل المؤمن عن هذه النعم، وأنها من الله ﷻ منحه إياها، فغفل عن الله ﷻ، وظن أن هذه النعم قد حصلت من وراء ذكائه وتعبه، ومن وراء حركته وسهره، فنال تلك الأموال الواسعة والنعم المتعددة، بيت واسع، ومركوب هنيء، وتجارة رابحة، ومزرعة جميلة، وحياة رغيدة، فإذا بهذه الفتنة تذهب أكثر تلك النعم التي كان عليها هذا المؤمن، فشكلت في نفسه هزة عميقة أثرت فيه وفي أسرته، ولكن المؤمن قد يراجع نفسه ويرى تقصيره في حق الله أو تبذيره أو عدم شكره لله عن نعمائه وعطاياه، فيتمنى هذا المؤمن العودة لأقل ما كان عليه مع وجود الحفظ والأمان وراحة البال.

- وهنا يتذكر قول النبي ﷺ لعائشة حين دخل عليها يوماً، فرأى كسرة ملقاة، فمشى إليها فأخذها، فمسحها ثم أكلها، ثم قال: «يا عائشة، أحسني

جوار نعم الله، فإنها قل ما تزول عن أهل بيت فكادت أن تعود إليهم».

[أخرجه الطبراني في الأوسط]

- وقال عمر رضي الله عنه: «اخشوشنوا، واخشوشبوا واخلولقوا وتمعددوا، كأنكم معد، وإياكم والتنعم وزي العجم». [الطحاوي في مشكل الآثار]

اخشوشنوا: البسوا الخشن.

اخشوشبوا: الغلظ وابتذال النفس والمشي ليغلظ الجسد.

اخلولقوا: البسوا الثوب الخَلَق (أي البالي).

تمعددوا كأنكم معد: أي تزيّوا بِزِيّ مَعَدٍّ في تَقَشُّفِهِمْ، حتى تنتسبوا إليهم، أو تَصَبَّروا كما صبروا على عَيْشِهِمْ.

- وعن السيدة فاطمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «شرار أمتي الذين غذوا بالنعم يأكلون ألوان الطعام الطعام، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون في الكلام». [أخرجه البزار]

أي إنهم لا يعرفون أن هذه النعم إنما هي من فضل الله عليهم و لا يعرفون حق الأداء و الشكر لهذه النعم، ويتكبرون على خلق الله فهؤلاء شرار الأمة يظهرون عند امتحان الله لهم.

۞ ۞ ۞

مناجاة:

قال أبو العتاهية:

هِـــيَ الأَيّـــامُ وَالعِبَـــرُ   وَأَمـــرُ اللَـــهِ يُنتَظَـــرُ
أَتَيـــأَسُ أَن تَـــرى فَرَجـــاً   فَـــأَينَ اللَـــهُ وَالقَـــدَرُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة التاسعة

قانون الله في التغيير

● في القرآن الكريم أحكام وقصص وعبر وعظات وأمثال وقوانين، ومن قوانين الله ﷻ قانون يسميه العلماء قانون التغيير.

– قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

● **وهذه الآية لها مفهومان:**

المفهوم الأول: أن الله جل جلاله إذا أنعم على أناس بنعم كثيرة كالجاه والمال والأمان والراحة والسرور والصحة والعافية، فإن الله ﷻ لا يغير هذه النعم التي أنعمها عليهم إذا كانوا يؤدون شكرها ويعملون بها ما يرضي الله ﷻ ويستخدمونها في طاعته، فإن عصوا وظلموا وابتعدوا عن شرع الله ﷻ وانتهكوا المحرمات، أبدل الله ﷻ لهم تلك النعم بنقم وفتن وامتحانات، وسلبهم تلك الخيرات ليعيشوا في متاعب الدنيا وضيقها وضنكها.

والمفهوم الثاني: أن الله ﷻ لا يغير حال سوء وقع على أناس، من كرب وبلاء، وتعاسة وشقاء، وفقر وهلاك، وقتل وسلب ونهب وانتهاك للأعراض، وتدمير للبيوت والمحلات، فلا يغير الله هذا الحال عن هؤلاء الناس إلى حال يرضونه ويحبونه فيه الهدوء والطمأنينة والسعادة والرخاء، والحياة الطيبة والعيش الرغيد، والسعادة الدائمة إلا بعد رجوعهم إلى الله ﷻ بالتوبة الصادقة، والإنابة الحقيقية، والإسراع إلى طاعة الله، ورد الحقوق إلى أصحابها، ومعاهدة الله على السير القويم على صراطه المستقيم.

وحديثنا اليوم حول المفهوم الثاني لأنه يخصنا وهو الدواء لنا في معاناتنا التي نعيشها.

● وإذا كنا قد قصرنا في أداء واجباتنا تجاهه لما نعانيه من بلايا مؤلمة، وامتحانات كثيرة، وفتن متعددة، وآلام موجعة، وانشغالنا عن حق عبادة الله والتقرب منه بسبب المعاناة التي أصابت كل منا من نوع من أنواع الإصابة بالبلايا والمصائب والفتن والتي لم تستثنِ منا أحداً.

● وبما أننا والعالم الإسلامي جميعاً يدعو لنا بالفرج القريب لكننا نرى أن الإجابة من الله عز وجل قد تأخرت، فإننا على يقين بحكمة الله في هذا التأخير، وقد أشرت إلى حكمة من حكمه سبحانه، وهي ليميز الله الخبيث من الطيب، فقد ظهر العالم جميعاً على حقيقته وتعرى الجميع، وبان أن الجميع يتآمرون علينا، ولكل منهم مصلحة لما يحدث معنا.

● ويقيننا حق اليقين الذي لا يشوبه شائب، ولا يعتريه شك، ولا ينغصه يأس أنه لا منجى لنا ولا معين إلا الله جل جلاله.

● فإذا كان لله عز وجل في أمره شؤون، وفي تأخيره الإجابة حكم وعبر، ولعل من حكمها ما تحدثنا به في مفهومه الثاني لقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

- وفي هذا المفهوم روي عن عمر بن عبد الملك، قال: خطبنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منبر الكوفة فقال: كنت إذا سكت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدأني، وإن سألته عن الخبر أنبأني، وإنه حدثني عن ربه تعالى: «قال الرب عز وجل: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية، ولا من أهل

بيت، ولا رجل باد كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي». [أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى]

– فإن هذا المفهوم للآية وقول سيدنا علي ﷺ والحال حالنا الذي نمر عليه فإن ذلك يوجب علينا أن نرجع إلى حالنا، وننظر في تصرفاتنا، ونحاسب أنفسنا عن غفلتنا وتقصيرنا وإهمالنا لشرع ربنا، فنعلنها توبة نصوحا، وأوبة حقيقية، ونرجع إلى ربنا حق الرجوع منيبين له، واقفين على بابه، باكين على أعتابه، مقرين بذنوبنا وتقصيرنا وما كان منا، علَّ ذلك أن يكون سبباً في أن يرى الله ﷻ منا هذا الإقبال نحوه، والرجوع إليه، فيكون ذلك سبباً في استعجال الإجابة وتحقيق الفرج القريب، ورفع البلاء عن البلاد والعباد، وإزالة الغمة عن هذه الأمة.

● هلا أسرع كل منا في هذه الأيام إلى رد الحقوق إلى الآخرين، والندم على ما فات من الغفلة والإهمال والمعاصي، ثم إعلان التوبة النصوح إلى الله ﷻ، وعقد العزم على عدم الرجوع إلى المعاصي بكل أشكالها مع الاستقامة الثابتة والدائمة على طاعة الله ﷻ والتمسك بشرعه مع الدعاء والمناجاة والتوكل على الله ﷻ، عسى أن يرى الله كل ذلك منا بصدق وإخلاص فيبدل حالنا بأحسن حال مما نحبه ونرضاه.

– هلا أسرع العاق لوالديه بتقبيل يديهما وطلب المسامحة منهما والثبات على برهما.

– هلا حاسب كل فرد منا نفسه عن تقصيره في أداء حقوق أرحامه، فأسرع إلى صلتهم، وتفقد أرحامهم، وتقديم المساعدة لهم، وخاصة من الناحية المالية، والأمور الحياتية، وعلى الأخص في المعاناة التي نعيشها.

- هلا حاسب كل إنسان منا وتفقد أمواله وطريقة جمعها، فإن كان فيها حرام أو أكل لمال الآخرين من الإخوة أو الأهل أو الشركاء فأرجع لكل ذي حق حقه، ثم أعلن توبته إلى الله ﷻ توبة نصوحاً.

- هلا راجع كل منا علاقته مع جيرانه فأسرع إلى جمعهم وإفشاء المحبة فيما بينهم، وأعطى كل منهم حقه وحقوق الجيران كثيرة.

- هلا فكر كل منا بعلاقته مع الآخرين، وخاصة أولئك الذين قطع العلاقة معهم بسبب خلافات قديمة تافهة، فأسرع بتصحيح العلاقة والسير في المصالحة، وإعادة الروابط فيما بينهم.

- هلا سعى كل واحد منا في أداء واجب قرره النبي ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى». [أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه]

- فليقم كل واحد منا بتفقد الأرحام والجيران والوافدين إلينا من المحافظات المختلفة، فأسرع كل منا بتقديم المساعدة المختلفة من طعام وشراب وملبس ومسكن، مسترشدين بقول النبي ﷺ: «أَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِنًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ». [أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه]

- ومسرعين في تحقيق ما وجهنا إليه النبي ﷺ في قوله: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

[أخرجه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه]

اللهم وجهنا لما تحبه وترضاه حتى تمنحنا ما نحبه ونرضاه.

- يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

- هلا آن الأوان أن نرفع أكفنا إلى الله عز وجل، ونناديه ونناجيه، مع إظهار ضعفنا أمامه واحتياجنا إليه، وبكائنا بين يديه نتلو قوله سبحانه:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

- فإن صدقنا في هذا الأمر وكنا على ثقة بما عرفناه عن الله وصفاته وأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وبصدق توبتنا، وحسن إقبالنا والتوكل إليه، مع إظهار ضعفنا وشدة حاجتنا إليه في هذه الفتنة التي نمر بها فإن الله عز وجل لن يخيبنا، وسيحقق لنا فرجاً قريباً، ومخرجاً سليماً، وحياة هنية.

۞ ۞ ۞

مناجاة:

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم — يا كاشف الضر والبلوى مع السقم

قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا — وأنت يا حي يا قيوم لم تـــنم

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة العاشرة

إنسانية المسلم

● قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾ [الأعراف: ١٦٥].

● من العبارات الحديثة التي يتداولها الناس، وتتداولها الشعوب والأوطان، والممالك والدول في هذا العالم -كلمة الإنسانية- أي اهتمام الإنسان بالإنسان، وأداء الإنسان حقوق كل إنسان دون النظر إلى موقع أو مكان أو زمان أو عرق أو دين، وكثير من الذين يتباهون بهذه العبارة في الشرق أو الغرب نجدهم أبعد ما يكونون عن تطبيقها وتحقيق أهدافها، ولئن كانت هذه العبارة تتردد صداها في هذا الزمان، فإن حقائقها منذ القديم يدعو إليها القرآن الكريم والأنبياء والمرسلون، وعلى الأخص سيدنا محمد ﷺ، فالله ﷻ يقول في قرآنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

- والنبي ﷺ يقول لنا: «الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ». [أخرجه أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه]

● فهذا هو الإسلام يدعو إلى الإنسانية منذ نشوئه وقبل أن يتحدث أحد عن الإنسانية، بل الإسلام يهتم بالإنسانية جمعاء ويعمل على تحقيقها، ويدعو المسلم لينفع الجميع جميع خلق الله على اختلاف مشاربهم وأديانهم لا أن يهتم بنفسه وأهله فقط، إنه يدعو لبر الوالدين، وصلة الأرحام، والاهتمام بالجيران،

والإحسان للضيوف والخلان، والاعتناء بالأرامل والأيتام، وأداء الصدقات من زكاة وأعمال خير كثيرة.

● ويدعو للمحافظة على المرافق العامة وتنميتها لذلك سمي المجتمع مجتمعاً، أما إذا لم يكن هناك اهتمام فهو حشد أجساد، ولا يمكن تسمية ذلك مجتمعاً.

● وبقدر التعاون بين أفراد المجتمع يصلح المجتمع، وقد دعا القرآن الكريم إلى التعاون بأبهى صوره لجميع خلق الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢].

● إن روح التعاون في الإسلام تتجاوز مسألة إنجاز المصالح المشتركة إلى حماية الآخرين والمحافظة على مشاعرهم ومصالحهم، فجعل الإسلام من شعب الإيمان (إماطة الأذى عن الطريق) وجعل له ثواباً عظيماً، فكيف بمجتمع يضع الأذى في طريق الآخرين دون مبالاة ولا اهتمام، وكذلك نهى النبي ﷺ أن يَرِدَ المريض على الصحيح ويقترب منه دون أخذ الحيطة، فيكون سبباً في انتقال المرض إلى الصحيح.

● ومن العجب والغريب أنّ تعاليم ديننا قد ابتعد عنها المسلمون، ومع ذلك فإنهم يتباهون بتطبيق الآخرين لها فكأنهم تمسكوا بأخلاقنا وما دعا إليه ديننا.

– على سبيل المثال في اليابان نرى أيام البرد القارس من وضع على أنفه وفمه كمامة بيضاء ليس من الخشية من البرد أو العدوى من الآخرين، بل حتى لا ينتقل المرض منه إلى غيره.

- وأليس من العجب والغريب أيضاً أن يبصق أحدنا في طريق العامة أو أن يعطس في وجه الآخرين، أو أن نعانق الآخرين ونحن في حالة مرض شديد، وقل في هذا الموضوع الكثير وحدث ولا حرج، مع أن ديننا يأمرنا بغير ذلك من التوجيهات التي تسعى إلى المحافظة على صحة الآخرين، وتأمرنا بواجبات يجب أداؤها للآخرين حفاظاً على صحتهم.

● في الحديث عن الإنسان يجرنا إلى الحديث عن المواطن الصالح، فالمواطن الصالح في الإسلام هو المواطن الصالح أينما حل وارتحل يتقيد بذلك في بلده وبلد غيره، فليس له صفتان مختلفتان إحداهما في بلده والأخرى في البلاد الثانية.

● الثقافة الغربية والشرقية صنعت من مواطنيها إنساناً له سلوك يتعامل بها داخل بلاده وسلوك وتعامل مختلف خارجها، حيث ينهب خيرات الآخرين ويقهر ضعفاءهم ويستعمر أرضهم ويقتل نساءهم وأطفالهم.

● وقد يظهر مثل هذا السلوك عند بعض المسلمين وهو جزء من الغزو الخلقي والروحي لهم، وهو مخالف لتعاليم الإسلام وشرعه.

● الإنسانية والمواطنة الصالحة ليست كلمات تقال في التطبيق العملي في الإسلام بل هي مظاهر عملية تظهر في سلوك كل مسلم، وأبرزها ما ظهر من النبي ﷺ في معاملة كل من واجهه وجالسه أو جاوره وعامله، وإن كل ما صدر عن تصرفات النبي ﷺ وهو القدوة المثلى والأسوة العليا في كل تعاليم الإسلام كانت مثالاً أعلى في إظهار إنسانية الإسلام، والتي أثرت في أصحاب النبي ﷺ.

- فقد روي أن سَهْلَ بْن حُنَيْف وَقَيْسَ بْن سَعْد كانا قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّة، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجِنَازَةٍ فَقَامَا. فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، أَيْ مِنْ أَهْلِ

الذِّمَّة فَقَالاَ إنَّ النَّبيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ. فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْساً». [أخرجه البخاري]

● كما كان النبي ﷺ ينظر إلى الإنسان على أنه إنسان يجب احترامه ومساعدته في كل شؤون الحياة مع حسن المعاملة له، ولو كان على غير الإسلام، بل كان النبي ﷺ حريصاً على كل إنسان أن ينال السعادة، وذلك من خلال أن يعرفه على طريق السعادة في الدنيا والآخرة وهي الإسلام، وكان يظهر ذلك خاصة عند من جاورهم.

– فقد روي أن النبي ﷺ كان له جار يهودي فعاده مع أصحابه فقال: «أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله». فنظر إلى أبيه فسكت أبوه وسكت الفتى ثم الثانية ثم الثالثة فقال أبوه في الثالثة قل ما قال لك ففعل فمات، فأرادت اليهود أن تليه فقال رسول الله ﷺ نحن أولى به منكم فغسله النبي ﷺ وكفنه وحنطه وصلى عليه. [أخرجه عبد الرزاق وابن حبان]

● إن تعاليم القرآن وتوجيهات النبي ﷺ كانت تسري في أعماق المؤمن في كل زمان ومكان تطبيقاً واضحاً وسلوكاً دائماً.

– وفي هذا الموضوع ما روي أن لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف، يعمل نهاره أجمع، حتى إذا جنه الليل رجع إلى مترله، وقد حمل معه لحماً فطبخه أو سمكة فشواها، ثم لا يزال يشرب حتى إذا دب الشراب فيه غنى بصوت، وهو يقول:

أضاعوني وأي فـتىً أضـاعُوا ... لِيَوم كريهـةٍ وسـدَادِ ثَغْـرِ

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت، حتى يأخذه النوم.

وكان أبو حنيفة يصلي الليل كله، ففقد صوته، فسأل عنه، فقيل: أخذه العسس منذ ليال، وهو محبوس.

فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غد، وركب بغلة، واستأذن على الأمير. فقال: إئذنوا له، وأقبلوا به راكباً، ولا تدعوه يترل حتى يطأ البساط. ففعل، فلم يزل الأمير يوسع في مجلسه، وقال: ما حاجتك؟ قال: لي جار إسكاف، أخذه العسس منذ ليال، ويأمر الأمير بتخليته.

فقال: نعم، وكل من أخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا. فأمر بتخليتهم أجمعين.

فركب أبو حنيفة، والإسكاف يمشي وراءه، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه، فقال: يا فتى، هل أضعناك؟ فقال: لا، بل حفظت ورعيت، جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار، ورعايته.

وتاب الرجل، ولم يعد إلى ما كان عليه، ببركة الإمام، وجعل الجنة مُتقلبه ومثواه. [الطبقات السنية في تراجم الحنفية: التقي الغزي]

۞ ۞ ۞

مناجاة:

هوِّن عليك فإن الأمر مقدور ... وكلّ شيءٍ من الأشياء مسطور

والرِّزق والخلق والآجال قد ... قسمت وأحكمتها وزمَّتها المقادير

فليس يقدر مرءٌ صرف واحدةٍ ... منها ولو كثرت منه التَّدابير

كم من رأيناه ذا مالٍ وذا سعةٍ ... وذا غضارة عيشٍ وهو محبور

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الحادية عشرة

صنائع المعروف

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾[المائدة: ٢].

● نعيش اليوم حالة صعبة لم يرو التاريخ مثلها أبداً، حالة جعلت الكثير من الناس يتركون بيوتهم، ويهاجرون خارج القطر، أو ضمن محافظاته وأحيائه، وقد خسر الكثير منهم بيوتهم وأموالهم وأعمالهم وموارد رزقهم، من جراء القصف أو الحرق أو النهب أو السرقة.

● ومع هذا البلاء الكبير الذي نعيشه اليوم، وما فيه من عسر وتعاسة وشقاء وهم وغم وبلاء وامتحان، والذي كاد أن يعم جميع الناس في هذا البلد .

● فإن هناك امتحاناً للمؤمنين من نوع آخر، يظهر حقيقة هؤلاء المؤمنين في صدق إيمانهم.

هل هو إيمان ثابت يقيني أم هو إيمان شكلي ادعائي، لم يدخل أعماق القلوب؟

إنه امتحان عنوانه: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

● وهو عنوان كبير، ولكني أتحدث عن جزئية منه، تخصنا نحن رواد المساجد، ألا وهو:

– كيف نتعامل مع هذا البلاء والمصائب والفتن فيما يخص تعاوننا مع بعضنا البعض كما أمر الله ﷻ؟!

– لقد مر الصحابة الكرام على محنة مؤلمة اضطر المؤمنون من أهل مكة إلى الهجرة إلى المدينة، هروباً بدينهم وحرصاً على أعراضهم، وقد تركوا بيوتهم وأموالهم التي سلبها المشركون الظالمون أعداء الدين، واستولوا عليها.

● فماذا كان موقف الصحابة الأنصار في المدينة المنورة؟

– آخى النبي ﷺ بين كل مسلم من أهل المدينة مع آخر من المهاجرين من مكة، وفتحوا لهم بيوتهم، وشاركوهم في أموالهم وما يملكون.

– إنه امتحان من الله للمهاجرين وللأنصار معاً.

– للمهاجرين أنهم تركوا ديارهم وأوطانهم وبيوتهم وأموالهم.

– وللأنصار أنهم أحسنوا التصرف في استقبال إخوانهم المهاجرين، فقاسموهم الديار والأموال.

– هذه التجربة نمر عليها اليوم، فماذا فعل كل واحد منا؟!

– بات كل منا يخاف على نفسه وأهله وبيته وماله وعرضه، واحتار كل منا ماذا يفعل؟ وقد اختلط الحابل بالنابل.

– فهل هناك سبيل لحماية أنفسنا مما نخاف ونحذر؟!

– نعم هناك سبيل دلنا عليه النبي ﷺ، هل تحبون أن تعرفوه وتقوموا بتطبيقه لحمايتكم وحماية أهاليكم مما تخافون وتحذرون ؟!

– إذن استمعوا وعوا ونفذوا كلام النبي ﷺ حيث قال: «صدقة السر تطفئ غضب الرب، وصدقة العلانية تقي ميتة السوء، وصنائع المعروف إلى الناس تقي صاحبها مصارع السوء: الآفات والمهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، والمعروف ينقطع فيما بين الناس، ولا ينقطع فيما بين الله وبين من افتعله».

[أخرجه البيهقي في شعبه عن أنس بن مالك وسنده ضعيف]

● فما معنى المعروف؟

– **المعروف**: كل ما وافق الشرع أو دعا إليه الشرع وكل ما ترتضيه العقول السليمة من أعمال الخير والبر ومساعدة الآخرين.

- من المعروف: الأمر بالمعروف، وهو دعوة الآخرين إلى المعروف.

- ومن المعروف: القول بالمعروف كما قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

● ومن أنواع المعروف: هو ما نتحدث عنه اليوم، والذي أشار إليه النبي في قوله: «صنائع المعروف» أي أن تصنع المعروف للآخرين، بأن تقدمه إليهم بقدر ما تستطيع .

روى أبو ذر رضي الله عنه قال، قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق». [أخرجه مسلم]

● وأهم معروف نصنعه في هذه الفترة التي نعيشها أن نمد أيدينا إلى بعضنا بعضاً، بأن لا نفرح بنجاتنا وعدم وقوع المحن علينا، ونترك الآخرين في معاناتهم، بل علينا أن نكون إلى جانب كل من وقعت عليه هذه المحنة من قليل أو كثير، بأن نكون إلى جانبه، وخاصة الأقارب ثم المعارف ثم الجيران وكل من نعرف وحتى من لم نعرف، أن نكون إلى جانبهم بكل مساعدة نستطيع أن نفعلها.

● المسلم الحق لا ينتظر من يأتي إليه ليسأله المساعدة، وإنما هو يفتش ويبحث عن هؤلاء المحتاجين، عن كرام قوم كبوا وامتحنوا وافتقروا واحتاجوا، كما ورد: «ارحموا ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالماً بين جهال». [ذكره ابن الجوزي عن الفضيل بن عياض]

● وفي هذا امتحان في مدى تطبيقنا لما نحفظ ونردد من أحاديث النبي ﷺ، ألم يقل ﷺ: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك أصابعه. [أخرجه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه]

- وألم يقل النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». [أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه]

● فأول صنائع المعروف في حالتنا اليوم وما نعانيه جميعاً أن نسعى إلى إيواء جميع هؤلاء المنكوبين.

- فمن كان عنده وسعة في بيته ضم إليه أقرباءه.

- ومن كان عنده بيت فارغ للإيجار أجره حسبة لله أو أجره بأجر بسيط، إن كان يحتاج لثمن الإيجار.

- ويا ويل وألف يا ويل لأولئك الذين غفلوا عن الله فغالوا في الإيجار واستغلوا هذه الظروف.

- ويا ويلهم من الله وعذابه في الدنيا قبل الآخرة، ألا يخشون أن يمحق الله مالهم بهلكة أو دمار أو سرقة أو سلب لمال، أو ينالهم فقدان أهلهم أو اعتداء على أعراضهم جزاء لهم على ما فعلوه بغيرهم؟!

- ألم يسمعوا قول النبي ﷺ: «تَعسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ».

[أخرجه ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه]

شيك: أصابته الشوكة، انتقش: لم يجد من يخرجها بالملقاط.

- ومن صنائع المعروف أيضاً إن وجد معنا فائض من مال أن نستأجر بيتاً لمن يحتاجه، وندفع أجاره أو على الأقل جزءاً من الإيجار.

- نعم لقد كشفت هذه المحنة حقيقة كل الناس وما تخفي صدورهم وما تكن به أنفسهم، والحكم العدل يعلم ويسمع ويرى، وحكمه نافذ في الدنيا قبل الآخرة، فهنيئاً للموفقين الذين يوفقهم الله إلى أعمال الخير فيسرعون إليه

بانشراح صدر مع سرور وحبور، وتعساً ثم تعساً لأولئك المغفلين الجاهلين الظالمين المحتكرين.

● واليوم هو يوم الامتحان، امتحان الله لعباده الصالحين، فيما يتصرفونه في هذا الواقع الأليم، والمؤمن لا ينظر إلى ما قدم سابقاً، وعلى أنه قد دفع في شهر رمضان زكاة ماله، اليوم هو يوم الصدقات دون حساب.

● ولقد كانت تمر محن شديدة على الصحابة تحتاج إلى التبرع بالمال، فكانوا يسارعون إلى بذله دون النظر إلى زكاة أو صدقة، وكانوا يسارعون في التنافس فيما يتصدقون، وذلك حرصاً على ثواب الله ونيل رضائه أولاً. وثانياً استجابة لأمر الرسول ﷺ في التصدق.

وكم رأينا إسراعهم وتنافسهم في الإنفاق بما يملكون!

– عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ أنه قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْماً أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي فَقُلْتُ الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْماً فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ». قُلْتُ: مِثْلَهُ.

قَالَ وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ ؓ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ». قَالَ أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ لاَ أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَداً.

[أخرجه أبو داود في سننه]

– وأنا اليوم لا أقول ادفعوا كل أموالكم أو نصفها، بل ادفعوا بقدر ما تستطيعون ولو كان قليلاً جداً.

– عن عدي بن حاتم ؓ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». [أخرجه البخاري]

والمسلم الحق لا يلتفت إلى نداء الشيطان وما يخوف به عباد الله، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨].

● وكم للصدقة أثر في محاربة الشياطين من الإنس والجن.

- عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يُخْرِجُ رَجُلٌ شَيْئاً مِنَ الصَّدَقَةِ حَتَّى يَفُكَّ عَنْهَا لَحْيَيْ سَبْعِينَ شَيْطَاناً». [أخرجه أحمد]

● وما أعظم الصدقة وثوابها، ومنها قول النبي: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ». [أخرجه الترمذي عن كَعْبٍ رضي الله عنه]

● من صنائع المعروف اليوم السعي إلى تأمين ما يحتاجه هؤلاء المنكوبون، وخاصة ما يتعلق بالطعام أو الشراب أو اللباس، وهذا واجب كل واحد منا، بأن لا نقصر فيه أبداً.

- أن نردد دائماً قول النبي: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به». [أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

- أما نسمع قول الله عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨-٩].

- أما نقرأ قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١٤-١٦].

مَسْغَبَةٍ: مجاعة. مَقْرَبَةٍ: ذا قرابة منه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذَا مَتْرَبَةٍ هو المطروح في الطريق الذي لا بيت له، ولا شيء يقيه من التراب -وفي رواية: هو الذي لصق بالدقعاء (الأرض) من الفقر والحاجة، ليس له شيء.

– والنبي ﷺ يقول في الحديث القدسي: «يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب وكيف أطعمك؟ وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي). [أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

– وكلنا يحفظ قول النبي ﷺ: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِماً ثَوْباً عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِماً عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِماً عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ». [أخرجه أبو داود عن أبي سعيد رضي الله عنه]

● عندما يقوم أحدنا بصنائع المعروف يجب أن يكون مندفعاً نحو عمله هذا وغايته رضاء الله عز وجل متقرباً إليه بخدمة عباده ويقدم ما يقدم دون منّة أو رياءٍ أو تفضُّل على الآخرين بل يظهر أنه خادم لمن يقوم بمساعدتهم وأنهم فضَّلوا عليهم لأنهم كانوا واسطة عمل خير لهم.

● ولقد كان من كلام الحكماء: (لا تتم الصنيعة إلا بطلاقة الوجه، وحسن الحديث، ولطف اللقاء).

● قال أحد الصالحين: للمعروف ثلاث خصال:

أولاً: تعجيله. ثانياً: تيسيره. ثالثاً: ستره.

فمن أخلَّ بواحدة فقد بخس المعروف حقه، وسقط عنه الشكر.

● واعلم أخي المسلم أن من فضل الله عليك أن يختارك لمساعدة الآخرين، وعليك أن تفرح أن استخلفك الله وسخرك لأن تكون ممن يبذلون من فضل الله عليك مما أعطاك إلى عباده، وأن تكون حاجة الناس عندك، و لم يجعل حاجتك عند الناس، فإياك إياك أن تضجر أو تتأفف أو تمل مما اختارك الله له، وردد دائماً أحاديث النبي ﷺ التي تتحدث في هذا الموضوع.

- فقد روى ابْنُ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ ﷻ خَلْقاً خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَّاسِ يَفْزَعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي حَوَائِجِهِمْ أُولَئِكَ الآمِنُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ».

[أخرجه الطبراني]

- وقال رسول الله ﷺ: «ما عظمت نعمة الله على عبد إلا عظمت مؤونة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤونة فقد عرض تلك النعمة للزوال».

[أخرجه البيهقي وأبو يعلى والعسكري عن معاذ بن جبل، قال المناوي وهو ضعيف]

- وقال رسول الله ﷺ: «إن لله أقواماً يختصهم بالنعم لمنافع العباد ويقرها فيهم ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم».

[أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب، وابن النجار عن ابن عمر]

- وقال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه بنعمة فأسبغها ثم جعل إليه شيئاً من حوائج الناس فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال».

[أخرجه أبو نعيم عن ابن عباس والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة]

وقال الفضيل بن عياض: (إذا علمتم أن حاجة الناس إليكم نعمة من الله عليكم، فاحذروا أن تملوا النعم فتصير نقماً). [كشف الخفاء]

- واعلموا علم اليقين أن ما تنفقونه بأن الله سيعوضه لكم.

- رتِّلوا قوله سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢].

- ورتلوا أيضاً قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

- ورددوا قول النبي ﷺ: «قال الله ﷻ أنفق أنفق عليك وقال يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار». [أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

- وقال ﷺ لسيدنا بلال: «أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالا».

[أخرجه أبو داود]

- وقال ﷺ: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ».

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه]

● إذا لم يكن باستطاعة أحدنا أن يقوم بصنائع المعروف بسبب قلة اليد فعليه واجب أن يشجع الآخرين على أعمال الخير لقول النبي ﷺ: «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ». [أخرجه الترمذي]

۞ ۞ ۞

المناجاة:

وَعَلَيْكَ عَوَّلَ فِي النَّدَى ... مَنْ رَاحَ لَيْسَ بِهِ نُهُوضُ
وَلأَنْتَ مَرْجَاةُ المرَجِّي ... عِنْدَهُ الجَاهُ العَرِيْضُ
فَامْنُنْ بِهَا حَمْرَاءَ يَحْ ... سُدُ مِسْكَهَا الطِّيْبُ الرَّضِيْضُ
واعْلَمْ بِأَنَّ صَنَائِعَ ال ... مَعْرُوفِ أَكْثَرُهَا قُرُوضُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الثانية عشرة

الإيثار في الإسلام

● قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

● تبرز هذه الآية خلقاً عظيماً من أخلاق الإسلام، وتسعى لتربية المسلم على هذا الخلق العظيم الذي لم يعرف من قبل في التاريخ وفي الأخلاق الإنسانية إنه خلق الإيثار هذا الخلق الذي يعني أنك إن وجدت أخاك المسلم بحاجة إلى أي مساعدة، وكنت تملك هذه المساعدة عليك أن تقدمها إليه، ولو كنت بحاجة إليها لتنال ثواباً عظيماً عند الله ﷻ في الدنيا والآخرة.

● أول ما ظهر هذا الخلق واضحاً جلياً في تاريخ الإسلام ظهر يوم هاجر المسلمون من أهل مكة إلى المدينة ووصلوا إلى المدينة وهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً، فقد منعوا أن يُخرجوا من مكة أي شيء يخصهم، تركوا بيوتهم وأموالهم وحوائجهم وأنعامهم وكل شيء يملكونه، وخرجوا مطرودين لا يملكون إلا اللباس الذي يرتدونه حتى وصلوا المدينة لا مأوى لهم، ولا مال لهم، ولا عمل لهم.

● حالة صعبة، وموقف محرج، وآلام موجعة، لكن التربية الإسلامية والتي لا يوجد مثلها في أي تربية أخرى، والمجتمع الإسلامي الذي لا يوجد له مثيلٌ في الحل، كان عنده الحل لكل معضلة لأنه يستمد تربيته من الله حيث

إنه ﷻ يربي من آمن به وصدق برسالة نبيه ﷺ خير تربية وتوجيه، تربية إسلامية فذة فيها سعادة الدارين.

● **والسؤال** الآن كيف حُلَت هذه المشكلة الكبيرة، والمعضلة الفريدة؟

والجواب بالتطبيق العملي الذي قام به المؤمنون من الأنصار الذي استقبلوا المهاجرين وفتحوا لهم أذرعهم، وقدموا إليهم بيوتهم وأموالهم حتى الفقير منهم آثر أخاه بما عنده.

- من هذه الأمثلة ما رواه أنس بن مالك قال: قدم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري وعند الأنصاري امرأتان فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال: بارك الله في أهلك ومالك دلوني على السوق فأتى السوق فربح شيئا من أقط (لبن مجفف يطبخ به) وشيئا من سمن فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة فقال: «مهيم (ما حالك) يا عبد الرحمن» فقال تزوجت أنصارية قال: «فما سقت إليها» قال وزن نواة من ذهب قال: «أولم ولو بشاة». [أخرجه البخاري]

- وهكذا ضرب سعد بن الربيع الأنصاري مثلاً فريداً في الإيثار، كذلك ضرب عبد الرحمن بن عوف وهو من المهاجرين مثلاً عالياً لعزة النفس والرغبة في العمل والاكتساب وقد فتحت له الدنيا بعدها، وما توفي إلا وهو أثرى الأثرياء.

- وما سعد بن الربيع الأنصاري إلا صورة مشرقة ومثلٌ من أمثلة الأنصار الكرام في خلق الإيثار.

- ويبالغ الأنصار بالإيثار والعمل على مقتضى هذه الإخوة فقد روى أَبو هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ قَالَتِ الأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ.

قَالَ: «لاَ». فَقَالُوا تَكْفُونَا الْمَئُونَةَ وَنُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ. قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. [أخرجه البخاري]

– وإن شئت في باب الإيثار أروع من ذلك وأعجب فإليك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة» فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها. [أخرجه البغوي]

– ومن أروع هذه الأمثلة أيضاً ما رواه أبو هُرَيْرَة ﷺ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِه فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إِلاَّ الْمَاءُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَنَا. فَانْطَلَقَ بِه إِلَى امْرَأَته، فَقَالَ أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَتْ مَا عِنْدَنَا إِلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي. فَقَالَ هَيِّئِي طَعَامَك، وَأَصْبِحِي سِرَاجَك، وَنَوِّمِي صِبْيَانَك إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً. فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلاَ يُرِيَانِه أَنَّهُمَا يَأْكُلاَنِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ: «ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ –أَوْ عَجِبَ– مِنْ فَعَالِكُمَا» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٩﴾ [أخرجه البخاري]

● وتعيش سورية اليوم في فتنة وامتحان لم يمر مثلها في العالم كله عبر عصور التاريخ، كلنا يسمع ويرى، وكلنا أصيب بلظاها من قريب أو بعيد،

لكن الكثير من أهل سورية من فقد بيته أو أهله أو ماله، فإن لم يكن بمقدورنا أن نوقف هذا النزيف المؤلم فإن في مقدورنا أن نلم بعض الجراح وأن نواسي بعض المجروحين، وخاصة ونحن في شهر رمضان الذي من حكمه أن يشعر الصائم بشعور الآخرين من المتألمين والمحتاجين فيقوم بتأدية واجبه تجاههم بقدر استطاعته، بل من واجبنا أن نحقق كل معاني آية الإيثار بأن نؤثر الآخرين ولو كان بنا خصاصة، وعملاً بقوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

- وتطبيقاً وتنفيذاً لأحاديث النبي ﷺ ومنها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ». [أخرجه مسلم]

● كما ينبغي علينا جميعاً أن نحمل أقل مسؤولية في هذه الفتنة، وأن لا نهمل أداءها راجين من الله عز وجل أن يرحم هذه الأمة، وأن يلطف بالبلاد والعباد، وذلك بأن نعيش مع الواقع فننظر إلى ما حولنا من الأقارب والأرحام والجيران والمعارف والجيران الذين حلَّ بهم البلاء بكل جوانبه، فلا ننتظر أن يسألونا أو يحسسونا بأمرهم بل واجبنا الإيماني الذي إن قصرنا فيه فسيعاقبنا الله جل جلاله أشد العقاب، وسنندم أشد الندم، واجبنا أن نسعى إلى هؤلاء وأن نقتفي آثارهم وأن نرصد حاجاتهم فنقدم لهم ما يحتاجون بقدر استطاعتنا بل أن نؤثرهم على أنفسنا ولو كان بنا خصاصة، ليسمع بنا العالم الذي ينظر إلينا ويتآمر علينا ولنعطيهم درساً عبر التاريخ أننا أمة محمد ﷺ التي لا يتخلى

أحد من أفرادها عن أي فرد من هذه الأمة وليروا تطبيق حديث النبي ﷺ تطبيقاً عملياً واقعياً ظاهراً مبيناً: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى». [أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير]

● وستسعون إلى من لا يجد مأوى فتُؤوه، وإلى من لم يبق بيده مالاً أو طعاماً أو شراباً فتساعدوه، وإلى كل مريض فتبلغوه طبيبه وتشتروا له أدويته وتتفقدونه خلال مرضه إلى أن يشفى، وتسعون وراء الأرامل والأيتام والثكالى والمتألمين ومن فقدوا حبيباً وتواسوهم بكل ما تمتلكون، بل سنؤثرهم على أنفسنا ولو كان بنا خصاصة إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

● إن الاهتمام بالآخرين ومساعدتهم هو خلق تعمق في نفوس المؤمنين الأوائل حتى أنساهم أنفسهم.

- يذكر أن معاوية بن أبي سفيان بعث بثمانين ألف درهم إلى عائشة رضي الله عنها وكانت صائمة وترتدي ثوباً خَلَقاً (قديم بالي) فوزعت هذا المال في ساعتها على الفقراء والمساكين ولم يبقَ منه شيء، فقالت لها خادمتها: يا أم المؤمنين ما استطعت أن تشتري لنا لحماً بدرهم نفطر عليه؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: يا بنية لو ذكرتني لفعلت!. [السلسة الضعيفة للألباني]

فآثرت غيرها ونسيت نفسها في سبيل إسعاد الآخرين من جيرانها وأبناء مجتمعها المسلم، وليس في بيتها ما تفطر عليه. فقد آثرت الإنفاق على غيرها وقضاء حوائجهم بالمال الكثير دون أن تتذكر نفسها.

- اشتكت السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ ما تلقاه من أعمال البيت من شدة وتعب وعناء ، وطلبت منه أن

يمنحها خادما تستعين به على شقاء الدنيا وعنائها فرفض عليه الصلاة والسلام وقال لها: «والله لا أعطيك خادماً، وأدع أهل الصُفَّة تطوى بطونهم من الجوع...). [أخرجه أحمد عن علي ﷺ]

- وعَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضى الله عنهما- قَالَ أَتَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ فَلَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهَا، وَجَاءَ عَلِيٌّ فَذَكَرَتْ لَهُ ذَلِكَ فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ عَلَى بَابِهَا سِتْراً مَوْشِيّاً». فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا». فَأَتَاهَا عَلِيٌّ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا فَقَالَتْ: لِيَأْمُرْنِي فِيهِ بِمَا شَاءَ. قَالَ: تُرْسِلُ بِهِ إِلَى فُلاَنٍ. أَهْلِ بَيْتٍ بِهِمْ حَاجَةٌ.. [أخرجه البخاري]

● هكذا كان النبي ﷺ قدوة لجميع المسلمين في كل زمان ومكان في التمسك بتعاليم الإسلام كاملةً وها نحن نرى منه العجب في إيثاره لأمته وعدم ترفعه عليهم والشعور بشعورهم ومشاركتهم في أحوالهم.

● وكذلك تعلم أصحابه الكرام ﷺ والتابعون لهم بإحسان هذا الخلق الكريم منه، فطبقوه خير تطبيق.

- فعَنْ مَالِك الدَّارِ، أن عُمَرَ بن الْخَطَّاب، أَخَذَ أَرْبَعَ مِائَة دِينَار، فَجَعَلَهَا فِي صُرَّةٍ، فَقَالَ لِلْغُلامِ: «اذْهَبْ بِهِمْ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ، ثُمَّ تَلَّهْ سَاعَةً فِي الْبَيْت، سَاعَةً حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ، فَذَهَبَ بِهَا الْغُلامُ إِلَيْه»، فَقَالَ: يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: اجْعَلْ هَذه فِي بَعْضِ حَاجَتِكَ، فَقَالَ: وَصَلَهُ اللَّهُ وَرَحِمَهُ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالِي يَا جَارِيَةُ، اذْهَبِي بِهَذه السَّبْعَة إِلَى فُلان، وَبِهَذه الْخَمْسَة إِلَى فُلان، حَتَّى أَنْفَذَهَا، فَرَجَعَ الْغُلامُ وَأَخْبَرَهُ، فَوَجَدَهُ قَدْ أَعَدَّ مِثْلَهَا إِلَى مُعَاذ بن جَبَلٍ، فَقَالَ: «اذْهَبْ بِهَذَا إِلَى مُعَاذ بن جَبَلٍ وَتَلَّهُ فِي الْبَيْت حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ»، فَذَهَبَ بِهَا إِلَيْه، فَقَالَ: يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: اجْعَلْ هَذَا فِي بَعْضِ

حَاجَتِكَ، فَقَالَ: رَحِمَهُ اللَّهُ وَوَصَلَهُ، تَعَالِي يَا جَارِيَةُ، اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ فُلانٍ بِكَذَا، وَاذْهَبِي إِلَى بَيْتِ فُلانٍ بِكَذَا، فَاطَّلَعَتِ امْرَأَةُ مُعَاذٍ، فَقَالَتْ: نَحْنُ وَاللَّهِ مَسَاكِينُ، فَأَعْطِنَا، وَلَمْ يَبْقَ فِي الْخِرْقَةِ إِلا دِينَارَانِ، فَدَحَا بِهِمَا إِلَيْهَا، وَرَجَعَ الْغُلامُ إِلَى عُمَرَ، فَأَخْبَرَهُ وَسُرَّ بِذَلِكَ، وَقَالَ: «إِنَّهُمْ إِخْوَةٌ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»

[أخرجه الطبراني في الكبير]

● كان عبد الله بن المبارك الإمام المحدث الكبير كثير الصدقات، تبلغ صدقاته في السنة أكثر من مئة ألف، وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم فأمر بإلقائه على مزبلة هناك، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة، فقالت أنا وأخي هنا ليس لنا شئ إلا هذا الإزار، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل.

فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة ؟ قال: ألف دينار.

فقال: عد منها عشرين دينارا تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي.

فهذا أفضل من حجنا في هذا العام، ثم رجع. [البداية والنهاية لابن كثير]

● قال محمد بن إسحاق الواقدي (صاحب المغازي وهو تابعي): كان لي صديقان أحدهما هاشمي وكنا كنفس واحدة فنالتني ضائقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتي: إما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة، وإما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم، لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزينوا

في عيدهم وأصلحوا ثيابهم وهم على هذا الحال من الثياب الرثة، فلو احتلت في شيء فصرفته في كسوتهم؟.

قال: فكتبتُ إلى صديقي الهاشمي أساله التوسعة علي بما حضر. فوجه إلي كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألف درهم فما استقر قراري حتى كتب إلى الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي الهاشمي، فوجهت إليه الكيس بختمه وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتي مستحياً من امرأتي، فلما دخلت عليها وحدثتها بأمري ابتسمت واستحسنت ما كان مني ولم تعنفني عليه فبينما أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيأته، فقال لي أَصدقني عما فعلته فيما وجهت به إليك ؟ فعرفته الخبر على وجهه ، فقال لي إنك وجهت إلي وما أملك على الأرض إلا ما بعثت به إلي، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه الكيس بخاتمي.

قال الواقدي فتواسينا الألف درهم فيما بيننا، ثم إنا أخرجنا للمرأة ألف درهم قبل ذلك، ونما الخبر إلى المأمون (الخليفة العباسي) فدعاني وسألني فشرحت له الخبر، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكل واحد منا ألفا دينار وللمرأة ألف دينار. [أخلاق العلماء ص ٦٤]

● هكذا كان إيثارهم وهكذا كانت أخلاقهم، وإن كنا اليوم لا نستطيع أن نصل إلى هذا المستوى من الإيثار لكننا نستطيع ولو لمرة واحدة في حياتنا أن نؤثر جيراننا، أو أرحامنا، أو من نعرفهم من الفقراء والمساكين بطعام يحتاجونه، أو لباس يريدونه أو شراب يتذوقونه، عملاً بقول النبي ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». [أخرجه البخاري]

● هل فكرت أخي المسلم أن تدعو إخوتك مع أزواجهم وأولادهم أو جيرانك أو أصدقاءك من الفقراء والمساكين في شهر رمضان ولو لمرة واحدة

في بيتك أو مزرعتك فتؤثرهم على نفسك أو تشاركهم بما عندك وتدخل السرور عليهم بعد الطعام والمسامرة مع هدية مالية يقضون بها بعض حوائجهم فتدخل السرور عليهم ويقع نظر الله عليك وتسجل في إعداد المقبولين المغفور لهم والمرحومين.

● قال محمد بن إسحاق: كان أناس بالمدينة يعيشون ولا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم فلما مات زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم بالليل بالأعطيات، ولما مات وجدوا في ظهره أثر حمل الجراب- الكيس- إلى بيوت الأرامل والمساكين.

[البداية والنهاية لابن كثير]

● وكان الليث بن سعد ذا غلة سنوية تزيد عن سبعين ألف دينار يتصدق بها كلها حتى قالوا إنه لم تجب عليه زكاة قط. واشترى مرة داراً بيعت بالمزاد فذهب وكيله يستلمها فوجد فيها أيتاماً وأطفالاً صغاراً فسألوه بالله أن يترك لهم الدار، فلما بلغ ذلك الليث أرسل إليهم أن الدار لكم ومعها ما يصلحكم كل يوم. [سير أعلام النبلاء]

● في خلق الإيثار الذي نتحدث عنه تربى عليه المسلمون الأوائل كان أحدهم إذا قدمت له مساعدة وكان يعلم أن هناك من هو أشد منه حاجة آثره عن نفسه.

- عن عبد الله بن أخت مسلم بن سعد أنه قال: أردت الحج فدفع إليّ خالي مسلم عشرة آلاف درهم وقال لي: إذا قدمت المدينة فانظر أفقر أهل بيت بالمدينة فأعطهم إياها.

فلما دخلت سألت عن أفقر أهل بيت في المدينة فدُللت على أهل بيت،

فطرقت الباب فأجابتني امرأة: من أنت؟ فقلت: أنا رجل من أهل بغداد أودعت عشرة آلاف درهم وأمرت أن أسلمها إلى أفقر أهل بيت في المدينة، وقد وصفهم لي، فوجدتكم كما وصف لي فخذوها.

فقالت: يا عبد الله إن صاحبك اشترط أفقر أهل بيت، وهؤلاء الذين بإزائنا أفقر منا.

فتركتهم وأتيت إلى أولئك، فطرقت الباب، فأجابتني امرأة، فقلت لها مثل الذي قلت لتلك المرأة. فقالت يا عبد الله نحن وجيراننا في الفقر سواء، فاقسمها بيننا وبينهم، فقسمتها بينهما وأنا أبكي وأردد قول الله ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

[صفة الصفوة لابن الجوزي]

- قال ابن شُبرمة: (وهو عبد الله الضبي تولى القضاء في زمن المنصور وكان عفيفاً صارماً عاقلاً توفي ١٤٤ هـــ): زوجت ابني على ألفي درهم فلم أقدر عليها ففكرت فيمن أقصده، فوقع في قلبي أبو أيوب المورياني (وهو وزير المنصور وكان لبيباً فصيحاً توفي سنة ١٥٤هـــ) فدخلت عليه فشرحت له خبري فقال: فلك ألفان، فلما نهضت لأقوم قال: فالمهر ألفان فأين الجهاز؟ فلك ألفان للجهاز، فذهبت لأقوم، فقال المهر والجهاز فأين الخادم؟ فلك ألفان للخادم، فذهبت لأقوم، فقال فالشيخ لا يصيب شيئاً قال فلك ألفان، فلم أزل أقوم ويقعدني حتى انصرفت من عنده بخمسين ألفاً. [المنتظم لابن الجوزي]

۞ ۞ ۞

مناجاة:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فـــرج قريـــب
فيأمن خائف ويفـــك عـــانٍ ... ويأتي أهله النـــائي القريـــب

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الثالثة عشرة

فسيلة عند المحن

● قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

● اشتهر النبي ﷺ مع أميته بأنه أبلغ بلغاء العرب، وأكثرهم فصاحة وتبياناً، يمتاز كلامه وأحاديثه على اختصار الكلمات، مع وسعة المعاني وتعدادها، ومع عمق آثارها وشدة أنوارها، وسرعة دخولها إلى العقول والقلوب.

● اليوم أتحدث إليكم في حديث من أحاديثه ﷺ، حديث حمل الكثير من المعاني والعبر والعظات والفوائد ضمن كلمات قليلة.

● حديثنا اليوم فيما رواه أَنَس بن مَالك قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ». [أخرجه أحمد]

الفسيلة: هي الشجرة الصغيرة التي تزرع أو الشتلة التي تستنبت.

● كل منا قد ألم ببعض أهوال الساعة عند قيامها، وذلك من وراء ما قرأناه في كتاب الله ﷻ في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١-٢].

وقوله ﷻ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝٦﴾ [الواقعة: ١-٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ١-٥].

● يأمرنا النبي ﷺ في حديث القيامة الذي مر معنا بأنه إذا قامت القيامة بكل ما تحمله من تلك الأهوال الشديدة، يأمرنا في ذلك الوقت الذي لا يعي أحد ماذا يفعل، وقد أصاب الجميع الهول والخوف والشدة وعدم السيطرة على الأفعال والهرج والمرج والصياح والبكاء والآلام، أمرنا إن وجد معنا وبين أيدينا خير أن نقوم به ولو كان ذلك فسيلة زرع بأن نحفر لها حفرة ونزرعها. «وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ».

● ماذا يريد النبي ﷺ من هذا الأمر وما الغاية منه؟

وكيف يستطيع الإنسان أن يتمالك نفسه في هذا الوقت أن يغرس هذه الفسيلة؟

- **والسؤال** ما نفع الغرس وقد قامت القيامة و لم يبقَ شيء في الوجود؟

- **أسئلة وأسئلة** تتوارد على الذهن في فهم حديث النبي ﷺ وتحقيق أمره ﷺ.

● ولعل العالم المتحقق النافذ إلى أعماق فهم هذا الحديث، والغاية منه يصل إلى الحقائق التالية:

أولاً- لعل النبي ﷺ أراد أن يعطي أفراد أمته من المؤمنين الصادقين، والخطاب موجه إليهم، إذا مر عليكم في حياتكم ظروف صعبة، وآلام كثيرة،

وفتن شديدة، ومصائب عظيمة، وبلاء كبير وامتحان صعب أن لا تصلوا إلى حد اليأس، ولا تقنطوا من رحمة الله أبداً، وما يحدث اليوم مما يمر علينا من الشدائد والأهوال لا شك أنه مؤلم أشد الألم، بل إن يذهب بالعقول والنفوس، ولكن مع ذلك فلن يبلغ مبلغ قيام الساعة، وما فيها من أهوال شديدة.

ثانياً– لعل النبي ﷺ يريد من هذا الحديث أن يقول إن الامتحان والبلاء مهما اشتد وصعب ونزل بالمؤمن مع كل أهواله وآلامه عليه أن لا يغفل عن الله ﷻ أبداً يعلم أن الله هو المقدر لما يحدث، وعليه أن يعمق إيمانه بالله، ويثق به، ويلجأ إليه، ويناجيه ويسأله ويدعوه.

ثالثاً– لعل النبي ﷺ أراد من هذا الحديث أن يذكر المؤمن أن البلاء مهما اشتد، والمصائب مهما تكالبت عليه، أن يسعى لرفعها عنه، ويخفف آلامها منه، بأن يقوم بعمل خير، علَّ هذا العمل يخفف مصابه، ويرفع عنه آلامه، ويبدله بما هو خير له.

رابعاً– لعل النبي ﷺ أراد من هذا الحديث أن يسعى المؤمن وهو في هذه الحالة المؤلمة، والبلاء العظيم إلى بذل الخير للآخرين، وأن يفكر فيما يسعدهم مع أوجاعه، وأن يتحمل عنهم أعباءهم مع مصابه الشديد، وهذا يزيد من حسناته، ويعلي من درجاته، ويمحو من سيئاته، وهو قادم إلى الحساب، والجزاء ويحتاج لمثل هذا.

خامساً– لعل النبي ﷺ أراد من هذا الحديث أن يقوم المؤمن وهو بهذه الفاجعة الشديدة بعمل يخدم الآخرين، فلا ينظر لحاله، وقد أصبح على هذه الحالة، بل ينظر إلى تقديم عمل للآخرين، عله ينفعهم في هذا الوقت العصيب الذي يمر على الجميع.

● فهذا التوجيه المحمدي ﷺ في مثل هذه الظروف التي يصعب وصفها من شدها وآلامها ونتائجها.

● توجيه إلى حب الخير للآخرين والسعي لمساعدهم مهما اشتد الأمر وما ذلك إلا ليصل إلى هذا الممتحن نتائج عمله الصالح هذا، علَّ هذا يخفف عنه آلامه ومصائبه في الدنيا، ويرفع من حسناته ودرجاته عند الله ﷻ في الآخرة.

- وهذا يؤيده قول النبي ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ». [أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

● إذا أردنا اليوم أن نسقط مفهوم هذا الحديث على واقعنا الحالي، ونحن نعاني من قيامة قامت علينا فوجئنا بها فهدمت البيوت، وشردت الكثير من الناس من ديارهم، وسلبت أموال الكثيرين وسرقت، وضاعت أموال الآخرين وانتهبت، ولم يبقَ عند الكثير عمل، فقد خربت الأعمال، وأوقفت الأشغال، قيامة وقعت علينا، فإذا أردنا أن نسقط معاني هذا الحديث علينا وجب علينا ما يلي:

أولاً- أن نعلم أن ما حدث لنا إنما هو مقدور علينا من الله ﷻ، ومسجل في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

ثانياً– هذا يوجب علينا أن لا نغفل عن الله في مصائبنا، ولا أن يضعف إيماننا، بل نبقى على ثقة بربنا، وثقة بنصره وفرجه، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

ثالثاً– أيضاً يجب أن نرضى بقضاء الله ونصبر ليكون ذلك سبباً في رفع البلاء عنا، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

رابعاً– أن نعلم أن من حكمة الله في هذا البلاء هو امتحان واختبار لنا، فيجب أن نكون على مستوى هذا الامتحان من الرضى والصبر لنفوز بثواب الله وعطائه وحفظه وفرجه، قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧].

– وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

خامساً– في قيامتنا هذه التي هي امتحان لنا، يجب أن يتحمل المؤمن وخاصة رب الأسرة مشاق هذه المرحلة وصعوبتها، وأن لا يبدي خوفاً ولا فزعاً، ولا اضطراباً، ولا غضباً أمام الآخرين، وخاصة أمام أسرته من الوالدين أو الزوجة أو الأولاد، ليساعد ذلك على عدم زيادة ما ألم بالأسرة من تشريد وفقدان وألم لا يوصف، فيزيد الطينة بلة، وإنما عليه أن يكون

متماسكاً راضياً متفائلاً لينقذ ما تبقى من إحساس بالتفاؤل بين أفراد أسرته، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وإلى أن تعود الأمور إلى نصابها بالفرج والطمأنينة والأمان والسعادة.

سادساً– في قيامتنا هذه يجب أن يحمل بعضنا بعضاً، وأن نتخلى عن أنانيتنا وتفردنا في الاهتمام بمصالح أنفسنا، بل أن نتعدى ذلك إلى مساعدة الآخرين بل إيثارهم، وتقاسم ما نملك، وما هو بين أيدينا فيما بيننا، وأن يقوم كل فردٍ منا بالتفكير بالآخرين والسعي إليهم، علَّ ذلك إن رأى الله ذلك حالنا في تعاوننا وإيثارنا لبعضنا أن يكون ذلك سبباً في استمطار فرج الله، وتحصيل نتائج الخير في تعويضنا لما فقدناه من بيوت وأموال وأعمال وغير ذلك.

● ونحن نتحدث عن غرس الفسيلة نتذكر قول النبي ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة». [أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه]

يرزؤه: أصاب منه خيراً.

مناجاة:

كن لما لا ترجو من الأمر أرجى ... منك يوماً لما له أنت راج
إنَّ موسى مضى ليطلب نــاراً ... من ضياء رآه والَّليل داج
فأتى أهلـه وقـد كلَّـم الله ... وناجاه وهو خير مناج
وكذا الأمر كلَّما ضاق بالنَّاس ... أتى الله فيه ساعةً بالانفراج

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الرابعة عشرة

حقائق البلاء

● قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

● لا شك أن كلاً منا يعلم أن الله ﷻ خلقنا ليبتلينا ويمتحننا ويختبرنا، ذكر الله ﷻ حكمة هذا البلاء بقوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﴾ [الملك: ٢].

● فحكمة الله ﷻ في هذا البلاء إعطاء الحرية للعبد ليختار إحدى الطريقين الخير أو الشر، ليحاسبه الله ﷻ عليه في الآخرة، فيلقى العبد جزاءه إلى الجنة أو النار.

والله ﷻ يقول: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر: ٧].

● فهو سبحانه يحب لعباده أن يختاروا طريق الخير، ولا يرضى لهم الكفر، ذلك ليسعدهم في الدنيا والآخرة، لذلك أرسل الله ﷻ لهم الأنبياء والرسل ومن بعدهم العلماء والدعاة والمربين ليشرحوا لهم الطريق المستقيم طريق السعادة في الدنيا والآخرة، ويرغبوهم فيه، ويساعدوهم على اتباعه، والاستقامة عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٣].

● ينبغي للإنسان أن يعلم أن هذا البلاء والامتحان والاختبار على نوعين:

أولاً- بلاء اختيار، وفيه يكون الإنسان حراً فيما يختاره من أقوال وأفعال ونيات وأعمال في هذه الدنيا، وهذا البلاء هو الذي يحاسب عليه في الدنيا والآخرة.

ثانياً- بلاء إجبار أي أن الإنسان لا يملك أية إرادة فيه أو حرية، بل هو تقدير من أقدار الله يقع عليه فيما شاء الله، ولا حول للإنسان فيه ولا قوة.

● وقد يسأل أحد الجهلة أو المغفلين لماذا يفعل الله ﷻ هذا بعباده؟

والجواب: إنّ الله ﷻ الذي خلق الخلق ليمتحنهم، لا يسأل عن أفعاله وتصرفاته وقدره وإرادته ومشيئته، إنما نحن نسأل عن أفعالنا قال تعالى: ﴿**لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ** ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

- وقال ﷻ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴿١٤﴾﴾ [الحج: ١٤].

- وقال ﷻ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩** ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

● ومن هذا البلاء الإجباري خلق الله ﷻ الإنسان على شكله ولونه وبيئته ورزقه وحياته وموته، فليس للإنسان أي اختيار في ذلك، وإن الاختيار لله ﷻ لخلقه فيما يشاء، في مثل هذا الموضوع يقول ﷻ: ﴿**لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ** ﴿٤٩﴾ **أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

● وهذا البلاء الإجباري المقدر من الله ﷻ إنما هو امتحان للإنسان أيشكر أم يكفر، أيصبر أم يفجر، أيرضى أم يسخط، وهذا البلاء على نوعين:

بلاء منح وعطاء لنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، كوفرة المال والصحة والعافية والجمال والعطاء والسرور وغير ذلك، وهذا بلاء يحتاج إلى شكر لينال الزيادة فيه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وبلاء محن كالفقر والمرض والخسارة والمصائب والبلايا وغير ذلك، وهذا البلاء يحتاج إلى صبر وعدم ضجر لينال العبد الثواب الجزيل من رب العالمين.

● وبلاء المنح هو تقدير من الله ﷻ، ولا يشير إلى صلاح الإنسان ولا إلى استحقاقه إلى هذه المنح، فكم من إنسان منحه الله العطاء والنعم، وكان بعيداً عن الله وشرعه وبعيداً عن الإيمان وطرقه.

● وكذلك بلاء المحن هو تقدير من الله، ولا يشير إلى عدم صلاح الإنسان، فكم من إنسان ابتلي بالمصائب ورضي عن الله وصبر على بلائه وكان من كبار أولياء الله والصالحين.

ولقد كان النبي ﷺ قدوة لنا في كل أمور الحياة وشؤونها، ذكر ذلك جل جلاله بقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

● ولقد كان النبي ﷺ القدوة المثلى لكل المؤمنين وعلى مر الأزمنة والعصور في كل أمور الحياة حتى فيما يخص البلايا والمحن، ليكون لنا في ذلك عبرة وأسوة وقدوة وتحملاً وصبراً ورضاً.

● فلقد اختار الله ﷻ نبينا محمداً ﷺ من بين جميع الناس من العرب من قريش ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، ولتكون رسالته خاتمة الرسالات، ومع

ذلك فلقد امتحنه الله بكثير من الامتحانات الشديدة ليكون لنا المثال الأعلى في التحمل والتجمل والصبر والرضا.

- ألم يولد يتيماً فتنقل بين أحضان أقاربه؟

- ألم يولد فقيراً واضطر للعمل راعياً للأغنام ثم خادماً للتجار؟

- ولما جاءه الوحي ألم يضطهد من قبل قومه؟ ألم يلاحق ويشتم ويضرب ويدمى؟

- ألم يحاصر مع أصحابه في شعب أبي طالب، ما يقارب من ثلاثة أعوام، وقد منع عنه الطعام والشراب وكل متطلبات الحياة، مما سبب موت عمه أبي طالب، ومن ثم زوجته خديجة، ففقد الحماية والرعاية والمواساة، حتى سمي ذلك العام بعام الحزن؟

- ألم يضطر إلى ترك بيته وأمواله في مكة ويهاجر إلى المدينة في أشق هجرة... لأيام وأيام في صحراء محرقة يمشي على قدميه لا ماء فيها ولا طعام ولا مكان يأوي إليه وكل ذلك حفاظاً على دينه ونفسه؟

- ألم يصب النبي ﷺ بموت ابنه إبراهيم وهو طفل لم يتجاوز ثلاث سنين، ثم موت ابنتيه رقية وأم كلثوم في حياته؟

- ألم يمتحن النبي ﷺ باستشهاد الكثير من صحابته في معارك ضد هجوم أعداء الدين؟

- ألم يصب النبي ﷺ بتسميم أعدائه له وشدة مرضه في حياته وخاصة مرض الموت؟

- يقول سيدنا عبد الله بن مسعود دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهْوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُوعَكُ (يصيبك الألم والتعب من الحمى) وَعْكاً

شَدِيداً. قَالَ «أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ». قُلْتُ ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ قَالَ: «أَجَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا». [أخرجه البخاري]

- لذلك قال النبي ﷺ: «إذا أصاب أحدَكم مصيبةٌ فليذكر مصيبتَه بي فإنها من أعظمِ المصائبِ».

[أخرجه ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس]

- فمن معاني هذا الحديث أن النبي ﷺ يقول لنا اذكروا مصابكم بي في موتي، واذكروا أيضاً ما أصابني في حياتي من امتحانات ومحن وبلايا ومصائب ليكون لكم ذلك درساً، وأكون لكم قدوة في تحمل ما تصابون به في حياتكم من شدائد ومصائب وبلايا تهز مضاجعكم فما عليكم إلا الصبر والرضا بقضاء الله، وانتظار فرجه في الدنيا والثواب الأعظم في الآخرة.

● هذه هي الدنيا، وهكذا أرادها الله سبحانه وتعالى حتى لا يتعلق المؤمن بهذه الدنيا أبداً، وإنما عليه أن يتحمل ما فيها من مشاق، وأن يبذل لها من الإيمان والتقوى وأعمال الخير والصلاح انتظاراً للآخرة وما فيها من ثواب الله الجزيل وعطائه الكثير، ومن منا لا يذكر حالة النبي ﷺ عندما ذهب إلى الطائف ليدعوهم إلى الله عز وجل وإذا بهم يطردونه ويرسلون وراءهم عبيدهم وأطفالهم ليؤذوا الرسول ﷺ ضرباً وشتماً، حتى أدموه ﷺ، فابتعد عنهم رسول الله ﷺ، ثم جلس تحت ظل شجرة يدعو ربه ويناجيه، وليكون ذلك درساً لنا عندما نواجه المصاعب والمتاعب والآلام، قال ﷺ: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري إن لم تكن ساخطًا عليَّ فلا أبالى غير أن

عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك أو يترل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

[أخرجه الطبراني في السنة عن عبد الله بن جعفر ﷺ]

– وفي هذا الموضوع يقول النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». [أخرجه أحمد]

● وهذا النوع من البلاء وهو بلاء المحن في البلايا والمصائب والفتن فإنه يقع على الفرد أو على الأمة، ويصيب الظالم والمظلوم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

● وهذه الفتنة التي تصيب الظالم والمظلوم مقدرة ومسجلة عند الله ﷻ، تحدث الله تعالى عنها فقال ﷻ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن: ١١].

● ويبين الله تعالى أن الإنسان لن يمتحن بالبلايا والمصائب والفتن إلا بما كتبه الله له وقدره فيقول الله ﷻ في ذلك: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة: ٥١].

– وكلنا يذكر وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». [أخرجه الترمذي]

- ووصية النبي ﷺ لزيد بن ثابت: «وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَدَخَلْتَ النَّارَ». [أخرجه أحمد]

- وأرشدنا النبي ﷺ أنه عند أي تصرف من تصرفاتنا عند وقوع الأقدار أن لا نحزن على ما أصابنا، ونقول يا ليتنا فعلنا كذا وكذا لأن ما حدث هو المقدر ولا يمكن تغييره، فقال ﷺ: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». [أخرجه مسلم]

● المؤمن بقضاء الله وبقدره يستغل أمواج البلاء بصبر جميل، فهو محفوظ التوازن في السراء والضراء أمره كله له خير، وليت شعري ماذا جنى الساخطون على ربهم إنهم لم يجنوا إلا الشقاء والتعاسة، تحالفت عليهم الهموم، وترادفت عليهم البلايا.

وكن بالذي خُطَّ باللوح راضياً فلا مهرب مما قضاه وخَطَّهُ

إذا كانت الأقدار تجري بهذا الشكل فهل يمكن للإنسان أن يخفف من هذه الأقدار؟

الجواب: نعم وقد وجهنا النبي ﷺ إلى عدة أمور يلتجئ إليها المؤمن قبل وقوع الأقدار أو أثناءها أو بعدها من أجل تخفيف هذه الأقدار في البلايا والمصائب والمحن والفتن منها:

أولاً- الدعاء: حيث يقول النبي ﷺ: «لاَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلاَّ الدُّعَاءُ وَلاَ يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلاَّ الْبِرُّ». [أخرجه الترمذي عن سلمان رضي الله عنه]

- ويقول ﷺ: «لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل، ومما لم يترل، وإن البلاء ليترل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة».

[أخرجه المستدرك عن عائشة رضي الله عنها]

- ويقول ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض». [أخرجه الحاكم عن علي رضي الله عنه]

- يقول ابن القيم الجوزية في موضوع الدعاء: (وله مع البلاء ثلاثة مقامات أحدها أن يكون أقوي من البلاء فيدفعه الثاني أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفا الثالث أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه). [مدارج السالكين]

ثانياً- التقوى والورع: حيث يقول عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وسوف يمر هذا الموضوع كاملاً في الوقفة السابعة عشرة.

ثالثاً- عمل الخير ومساعدة الآخرين وصلة الأرحام والصدقة على المحتاجين، فقد قال ﷺ: «من سره أن يمد الله في عمره ويوسع له في رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه».

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن عاصم رضي الله عنه]

- وفي قوله ﷺ: (يمد الله في عمره) تأويلان: **أحدهما معنوي**، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل، والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت.

والآخر يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ والذي في علم الله ثابت لا تبدل له.

- وقد سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذا الحديث، كيف يزداد في العمر والأجل، فقال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٢].

- **فالأجل الأول:** أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته.

والأجل الثاني: يعني المسمى عنده من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله، فإذا اتقى العبد ربه، ووصل رحمه، زاد الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البرزخ، فإذا تحتم الأجل في علمه السابق امتنعت الزيادة والنقصان لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

- وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

● هناك حديث عن أم سلمة قالت، قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة خفيا تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم زيادة في العمر، وكل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف». [أخرجه الطبراني في الأوسط]

- في هذا الحديث استوقفني بعض الإخوة في معناه ونحن في هذه الفتنة التي نعيشها، وقد كثر القتل بين الأبرياء، نحن جميعاً نرى ونسمع كل ذلك يومياً، استغرب من سألني أن هؤلاء الأبرياء الذين يصل إلينا خبر موتهم نعلم

صلاحهم وإيمانهم وأعمالهم الخيرية وصدقاتهم الكثيرة وصنائع معروفهم المتعددة، فكيف لم يقهم كل ذلك من مصارع السوء وميتة السوء في هذا الموت المؤلم الذي نشهده في هذه الفتنة.

والجواب على هذا الأمر: أن قدر مصارع السوء على قدرين:

أولاً– قدر يمكن أن يتقى بأعمال الخير ويتبدل ويتغير أو يخفف في نزوله وكيفيته كالتي ذكرت في حديث (صنائع المعروف تقي مصارع السوء)، يؤيد ذلك أيضاً حديث (وإن البلاء ليترل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة) ويؤيد الحديثين قول الله ﷻ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

ثانياً– قدر لا يتغير ولا يتبدل فيما قدره الله على المؤمن في ميتة يراها الإنسان ميتة سوء، وإنما هي قدر من الله ﷻ يريد أن يرفع الله ﷻ من قيمة هذا المؤمن من موت يموت فيه في انتهاء أجله بمنحة يمنحها الله إليه، وهي موت شهادة فيها عزة وكرامة وثواب كبير.

– ومن المعاني التي يجب أن نفهمها أيضاً عن مصارع السوء أن الله ﷻ يحفظ المؤمن صاحب صنائع المعروف من موت يتخبط الشيطان المؤمن عند موته، فيتزعزع إيمانه، ويقع في الشك بالله أو انتقاد فعل الله ﷻ وقدره فيموت على النفاق أو الكفر، وهذا ما يسمى بسوء الخاتمة، لذلك قال النبي ﷺ: «لا تَعْجَبُوا بِعَمَلِ عَامَلٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَا يُخْتَمُ لَهُ».

[أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ﵁]

– وقول رسول الله ﷺ: «لاَ عَلَيْكُمْ أَنْ لاَ تَعْجَبُوا بِأَحَد حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَاناً مِنْ عُمْرِهِ أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ لَوْ مَاتَ

عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلاً سَيِّئاً وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِه بِعَمَلٍ سَيِّئٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلاً صَالِحاً وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْراً اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِه». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ قَالَ «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ». [أخرجه أحمد عن أنس بن مالك]

● ومن هنا نجد أن مفهوم مصارع السوء وميتته ليس أن يصاب المؤمن بألم شديد يؤدي إلى موته أو أن يموت طعناً أو تحت هدم أو غير ذلك مما نسمعه، فإن كل ذلك يعتبر شهادة لا موتاً.

● والشهادة منحة من الله يختص الله بها من يشاء من عباده فيجعل قدره المقدر بالموت من موت عادي إلى موت شهادة لها خصوصيتها ومكانتها عند الله ﷻ.

– مما سبق يجب أن نعلم أن المؤمن الصالح الذي يقدر له موت شهادة بأشكال متنوعة مؤلمة جداً كما نراها اليوم في قنص أو تحت هدم أو ذبح أو حرق أو غير ذلك مما يؤلم القلب، ويضيق به الصدر، وتبكي له العيون، وتتصدع له الأنفس، لا يدل ذلك على غضب من الله ﷻ عن هذا العبد أو انتقام منه، وإنما هو منحة شهادة ورفع للدرجات، وفي القرآن الكريم أمثلة على ذلك، فقد قتل كثير من الأنبياء من قبل أقوامهم الكفار أبشع قتلة فهم شهداء، ومن هؤلاء سيدنا يحيى عليه السلام الذي حزّ رأسه وفصل عن جسده، وفي القرآن الكريم سورة كاملة وهي سورة البروج تتحدث عن أصحاب الأخدود.

– عن الربيع بن أنس، قال: كان أصحاب الأخدود قوماً مؤمنين اعتزلوا الناس في الفترة، وإن جباراً من عَبَدَة الأوثان أرسل إليهم، فعرض عليهم الدخول في دينه، فأبوا، فخدّ أخدوداً، وأوقد فيه ناراً، ثم خيرهم بين

الدخول في دينه، وبين إلقائهم في النار، فاختاروا إلقاءهم في النار، على الرجوع عن دينهم، فألقوا في النار، فنجَّى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار من الحريق، بأن قبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار،وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم، فذلك قول الله:(فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ) في الآخرة (وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) في الدنيا.

● وهناك أمثلة متعددة في سيرة النبي ﷺ وأحاديثه في هذا الموضوع بالذات منها:

– عَنْ خَبَّاب ﷺ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَة فَقُلْنَا: أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا أَلاَ تَسْتَنْصِرُ اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ فَجَلَسَ مُحْمَارّاً وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ: «وَاللَّه إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ الْحُفْرَةُ فَيُوضَعُ الْمنشَارُ عَلَى رَأْسه فَيُشَقُّ باثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ عَنْ دينه أَوْ يُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَديدِ مَا بَيْنَ عَصَبه وَلَحْمه مَا يَصْرِفُهُ عَنْ دينه وَلَيُتَمِّمَنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسيرَ الرَّاكبُ منْكُمْ منْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخْشَى إِلاَّ اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكنَّكُمْ تَعْجَلُونَ». [أخرجه البيهقي والطبراني وغيرهما]

– كذلك في قصة عمار بن ياسر وقتل والده ووالدته أمام عينيه بأبشع الأساليب، ومقتل الصحابة في غزوات بدر وأحد وغيرهما أمثال حمزة بن عبد المطلب وكيف مثل به، واستشهاد عمر بن الخطاب وغيرهم من الصحابة الكرام الذين كانوا في أعلى مراتب الصدق والإيمان والإخلاص مع الأعمال الصالحة التي لم يبلغها أحد مثلهم كل ذلك دليل على أن الشهادة منحة ربانية وعزة وكرامة ورفعة وسؤدد.

– اللهم ارحم شهداءنا وصبر مبتلانا، واشفِ مرضانا، وداوِ جرحانا، وآمنا في أوطاننا، واحفظ البلاد والعباد برحمتك يا أرحم الراحمين.

- أما أولئك الذين يموتون من أهل الكفر أو الفجور أو النفاق أو الفسوق أو الظلم أو الذين لا يؤمنون بالله، ولا يدينون بأي دين، ولا يتخلقون بأي خلق ولا شريعة ولا إنسانية، فميتتهم إلى جهنم وبئس المصير.

- عن عائشة، قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، طرحوا فيه، إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملاها، فذهبوا ليخرجوه فتزايل [لحمه] فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة.

فلما ألقاهم في القليب وقف عليهم فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً؟».

قالت: فقال له أصحابه: «يا رسول الله أتكلم قوماً موتى؟! فقال: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق».

قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلت لهم.

وإنما قال رسول الله ﷺ: «لقد علموا». [السيرة النبوية لابن كثير]

- وعن أنس، أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثة أيام حتى جيفوا، ثم أتاهم فقام عليهم فقال: «يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة ابن ربيعة يا شيبة بن ربيعة، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً».

قال: فسمع عمر صوته فقال: يا رسول الله أتناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون؟ يقول الله تعالى: «إنك لا تسمع الموتى» فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا». [أخرجه مسلم]

- وقد دعا النبي ﷺ على عمه أبي لهب وابنيه بنهاية سيئة، وقد تحقق دعاء النبي ﷺ فيهم جميعاً، فمات أبو لهب بداء يعرف – بالعداسة (وهو مرض جلدي يخرج منه قيح ذو رائحة كريحة)، كانت العرب تتشاءم به وتفر ممن ظهر به خوف العدوى، فلما أصاب هذا المرض أبا لهب تركه أهله حتى مات، ومكث مدة لا يدفن حتى خافوا العار، فحفروا له حفرة فرموه فيها بواسطة جذوع الشجر، ثم رجموه بالحجارة حتى أخفوا معالمه، فكان ذلك أسوأ موت وأسوأ دفن.

● مما سبق نجد أن من معاني ميتة السوء ومصارع السوء أن يموت الإنسان والعياذ بالله على كفر أو نفاق أو ظلم أو قتل أو تعد على الناس أو انتهاك للأعراض والأنفس والمال، وهذا يسمى الشقاء، ويسمى سوء الخاتمة، وقد كان الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان يخشون ذلك.

- عن أبي عثمان النهدي قال: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ وهو يطوف بالكعبة وهو يقول: (اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت علي الذنب والغضب في الشقاء، فامحني وأثبتني في أهل السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب). [جامع الأحاديث]

- وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُول: (اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أَهْلِ الشَّقَاءِ فَامْحُنِي، وَاثْبِتْنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ). [أخرجه الطبراني]

● هناك **سؤال** نسأل عنه: هل هناك فرق بين أن يموت الإنسان موتاً عادياً أو أن يموت شهيداً؟

الجواب: نعم كلنا يعلم أن الموت حق، وأن لكل إنسان نهاية، وأن الموت مقدر من الله ﷻ في لحظة ومكان لا يتبدل ولا يتأخر، ثم تتنقل روح

الإنسان إلى عالم البرزخ وتبقى هناك إلى أن تقوم الساعة، إلا أن الشهادة منحة ربانية يموت فيها الشهيد في اللحظة المسجلة عليه، فسبب الموت واحد لكل الناس، وهو انتهاء الأجل، وأما المرض والهدم والقتل والخنق والغرق والطعن وغير ذلك، فهي عوارض وأشكال للموت، وهي ليست سبباً للموت، وإن الله ﷻ يختار من بين عباده الصالحين من يجعله شهيداً يموت حين قدره بالشهادة، فإن روح الشهيد تسكن في جوف طير خضر تأوي إلى أوكارها في قناديل من لؤلؤ تحت عرش الرحمن في الجنة، فشهادة المؤمن إذاً بأي شكل من أشكالها هي منحة من الله ﷻ تصل إليه الشهادة في وقت موته، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

● قد يسأل سائل من هم الشهداء؟ الشهداء في الإسلام تتعدد أصنافهم بين ذلك النبي ﷺ ذلك عندما سأل الصحابة فقال: مَا تَعُدُّونَ الشَّهَادَةَ. قَالُوا الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ (أي الذي مات بمرض الطاعون أو مات بطعنٍ بآلة حادة) وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ (أي جميع الأمراض الداخلية كالقرحة أو ضيق التنفس) وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدٌ (أي التي تموت وفي بطنها ولد أي حبلى أو تموت عند الولادة)». [أخرجه أبو داود]

● إن ما نراه ونسمعه اليوم عن حالات الموت الكثيرة وبأشكال كبيرة، يكاد العقل لا يستوعبها، ويكاد مشاهدتها أو سماعها تتفطر له القلوب، وتضطرب له النفوس، ولا يكاد العقل يصدق ما يسمع من هولها وشدتها، وخاصة ما يحدث مع الأبرياء وكبار السن والنساء والأطفال.

● هؤلاء الأبرياء الذين حل بهم هذا الموت بهذا الشكل، ومع أن الكثيرين منهم من الصالحين ومن الأتقياء الورعين، ومن أهل الخير والمعروف والصلة والبر، فإن الله ﷻ اختار بتقديره سبحانه هذا الموت لهم بهذا الشكل ليكرمهم بالشهادة، فالشهادة منحة من الله ﷻ يموت فيها الشهيد في الأجل الذي وقته الله له، وإنما المنحة من الله أن لا تسكن روحه البرزخ وإنما تكون روحه في الجنة تحت عرش الله إلى يوم الحساب تنعم برزق الله الخاص بالشهداء.

● إن الألم الشديد الذي نعانيه من فقد هؤلاء الأبرياء من أهل الصلاح والإيمان يجب أن لا يخرجنا عن الإيمان بالله والإيمان بقدره خيره وشره، فنخسر عندها أحبابنا، ونخسر ما هو أشد من ذلك إيماننا، فنخسر الدنيا والآخرة.

● ومع أن هذه الأقدار شديدة الوقع على الإنسان، وهي تصيبه بالذهول والاضطراب في العقل والقلب والنفس، فإننا يجب أن لا ننسى أن هذه الأقدار هي أقدار عامة تمر على جميع الخلق، فالمؤمن يصبر لها ويرضى ويسترجع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

● لكي نصبر على قضاء الله وقدره في هذه المحنة الكبيرة علينا أن نراجع سيرة النبي ﷺ، ونستذكر مواقف كثيرة للصحابة رضوان الله عليهم وكيف

امتحنهم الله بمثل هذه الامتحانات، وكيف صبروا وثبتوا على قضاء الله ﷻ خيره وشره.

- فعن عثمان قال: لقيت رسول الله ﷺ بالبطحاء فأخذ بيدي فانطلقت معه فمر بعمار وأم عمار وهم يعذبون بمكة فقال: «صبراً آل ياسر فإن مصيركم إلى الجنة». [أخرجه البغوي وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر]

- وتستوقفنا هذه الحادثة أن النبي ﷺ كان يرى ما حل بصحابته من العذاب الشديد، فكان يتألم كثيراً، ولكنه لم يستطع أن يفعل لهم شيئاً إلا أن يصبرهم، فماذا حصل؟

- لقد مات ياسر والد عمار تحت العذاب وشدته، وطعن أبو جهل أم عمار سمية برمح في نحرها فماتت وعمار يرى ذلك فأغمي عليه من موت والديه تحت العذاب وهول ما لاقاه من العذاب، وما ذاك إلا لأنهم أبوا أن يتركوا دين محمد ﷺ، ويرجعوا إلى دين الكفر.

- وكل ذلك تحت مرأى النبي ﷺ وصحبه ﷺ الذين لم يملكوا إلا البكاء والدعاء والصبر والرضا عن الله ﷻ.

- وكلنا نتذكر غزوة أحد التي قتل فيها أكثر من سبعين صحابياً، وعلى رأسهم حمزة عم النبي ﷺ الذي بكاه النبي ﷺ كثيراً، وكلنا يذكر موته من قبل وحشي الحبشي الذي طعنه برمح وشق بطنه وأخرج كبده، فجاء بها إلى هند بنت عتبة، فقال: هذه كبد حمزة، فمضغتها ثم لفظتها.

- ومن شهداء أحد أيضاً مصعب بن عمير وكان حامل اللواء، ذاك الشاب الذي دخل في الإسلام باكراً، وكان يعرف بأنه أجمل شباب مكة وأعطرها، حيث كانت نساء مكة تخرج لرؤيته وهو يسير في طرق مكة

لجماله وعطره، فترك كل ذلك من أجل الإسلام، وجلس بين يدي النبي ﷺ ليحفظ القرآن ويتعلمه، فأرسله النبي ﷺ لنبوغه وصدق إيمانه وما يحمله من صفات الداعي إلى الله إلى المدينة، فكان أول دعاتها للإسلام،وهو الذي هيأ المدينة لاستقبال النبي ﷺ.

وهاهو اليوم يستشهد في أحد، فقد روى خباب بن الأرت أن يوم موت مصعب لم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطى بها رجليه خرج رأسه، فقال لنا النبي ﷺ: غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الأذخر. [السيرة النبوية لابن كثير]

● في هذه الفتنة الكبيرة التي نعيشها والتي اشتدت فيها الآلام والمصائب من هدم وقتل وسلب، يتكلم بعض المنافقين المُنظرين بهذه الحوادث بكلام لا ينبع عن إيمان بأقدار الله ﷻ يوقعون أنفسهم في معصية الله وغضبه، ومثل هذا حدث في زمن النبي ﷺ، فقد وفد على النبي ﷺ وفد من العرب، فقالوا يا رسول الله إنا فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا في الدين ويقرئووننا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام، فصدقهم النبي ﷺ، فبعث معهم عشرة من جل الصحابة، وأمر عليهم عاصم بن ثابت، فساروا حتى إذا كانوا بالرجيع بين مكة وعسفان غدروا بهم وأرادوا قتلهم فقاتلوهم حتى استشهدوا.

- قال ابن عباس لما استشهد هؤلاء الرهط، قَالَ رِجَالٌ مِنْ الْمُنَافقِينَ يَا وَيْحَ هَؤُلاءِ الْمَفْتُونِينَ الّذِينَ هَلَكُوا (هَكَذَا) لا هُمْ قَعَدُوا فِي أَهْلِيهِمْ وَلَا هُمْ أَدّوْا رِسَالَةَ صَاحِبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

- وأنزل الله في أصحاب السرية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧].

● فلنحفظ لساننا في الخوض فما لا يعنينا، ولنحافظ على إيماننا والسعي على الحفاظ على أنفسنا وأهلينا وأموالنا وأعراضنا بقدر استطاعتنا، ولنلتجئ إلى الدعاء والصدقة وقراءة القرآن والصلاة على النبي ﷺ مع التقوى في كل أعمالنا، فإن جاءنا قدر الله ﷻ فلنصبر ولنرضَ ولنحتسب، فالدنيا زائلة والآخرة لمن اتقى.

۞ ۞ ۞

مناجاة:

يا صاحب الهم إن الهم منفرجٌ ... أبشر بخيرٍ كأن قد فــرج الله
يا صاحب الهم إن الهم منفرج ... كم من أمور شداد فــرج الله
اليأس يقطع أحياناً بــصاحبه ... لا تيأسن فــإن الفــارج الله
وإذا ابتليت فثق بــالله وارض ... إن الذي يكشف البلوى هو الله
الله يحدث بعد العسر ميــسرة ... لا تجزعن فــإن الخــالق الله
والله ما لك غير الله من أحــد ... فحسبك الله في كل لــك الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ... ما لامرئ حيلة فيما قضى الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الخامسة عشرة

وصية النبي ﷺ في الفتن (طريق النجاة)

● من مفردات معجزات النبي ﷺ إخباره عن مغيبات ستحدث مع مرور الزمن وعبر التاريخ وقد تحقق ما أخبر عنه النبي ﷺ.

● ومن المعلوم من الدين أن الإنسان خلق في هذه الدنيا للبلاء والاختبار ليقرر مصيره في الدار الآخرة في الجنة أو النار.

● ومن جملة هذا البلاء والاختبار ما يواجه الإنسان في حياته من البلايا والمصائب والفتن التي تصيب الناس جميعاً حسب القانون الإلهي في الامتحان بالمحن وحكمة هذا الامتحان، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

● ويواجه المؤمن هذه الفتن بالرضا عن الله ﷻ، والصبر على قضائه، والرجاء لثوابه، وانتظار فرجه.

● وفي موضوع هذه المعجزات كثيراً ما كان النبي ﷺ يحدث أصحابه عن الفتن التي ستحدث في قادم الأيام، وماذا سيحل بهذه الأمة والامتحانات الصعبة والفتن الشديدة التي ستمر عليها، وكان يذكر لهم أسبابها ومظاهرها وما سيؤول أمرها وما سيلاقونه من شدة وآلام ومصائب لا تحمل.

● وفي يوم من الأيام، والنبي ﷺ يحدث أصحابه ﷺ عن هذه الفتن، والصحابة يستمعون لكلامه ﷺ، وقد ظهر عليهم التأثر الكبير من هذه الفتن

وما تؤول إليه، وما سيقع على أفراد هذه الأمة، اخترق صمتهم صحابي جليل اسمه **عقبة بن عامر** رضي الله عنه، وقد صعب عليه احتمال هذه الفتن، فسأل النبي ﷺ **ما النجاة منها يا رسول الله**، فأرشده النبي ﷺ إلى قارب النجاة، وسفينة الإنقاذ، وأوصاه بثلاث وصايا: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**». [أخرجه الترمذي]

● هذه وصايا عظيمة الشأن، قليلة المبنى، عظيمة المعنى، تبين طريق النجاة عند حدوث البلايا والمصائب والفتن، ونحن اليوم أشد ما نحتاج إليها، ونحن نعاني ما نعانيه منها، والتي لم نكن نتوقعها، وما سمعنا عنها في تاريخنا القديم أو الحديث، وما كان ليخطر ببال إنسان أن تقع، وقد أصبنا بها جميعاً من قريب أو بعيد أو من قليل أو كثير.

● هذه الوصية لا تعني أبداً سلبية التصرف عند المحن أي الانعزال والبعد وتفرد المسلم بنفسه وأهله دون النظر لما يحدث لمجتمعه وأمته، فالإسلام يدعو المسلم أن يكون فعالاً في مجتمعه يؤدي كل ما يستطيع من خدمة لمجتمعه من أعمال البر والخير والإحسان محققاً قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ٢].

● لكن هذه الوصية تتحدث عن مسلم عاش في بلاء شديد، ومصائب متعددة، وفتن كبيرة، وامتحان عظيم، ومحنة شديدة، سعى بكل إيمانه وإمكانياته أن لا يكون سلبياً بل إيجابياً في كل ما يستطيع فعله، لكن الفتنة وصلت إلى أشدها وإلى حالة لا يستطيع المسلم عمل أي شيء تجاهها، وفعل أي أمر يردها، وقد سدت الأبواب في وجهه، واختلط الحابل بالنابل، عند ذلك تكون هذه الوصية بلسماً له ودواء فيما أصابه وسفينة نجاة في بحر لجي.

- يؤكد هذا المعنى وصية أخرى وصى النبي ﷺ بها أبا ذر الغفاري رضي الله عنه، وهي وصية جامعة واضحة تحتوي على امتحانات متعددة:

- روى أَبو ذَرٍّ قَالَ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِمَاراً وأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ وَقَالَ: « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ شَدِيدٌ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ مِنْ فِرَاشِكَ إِلَى مَسْجِدِكَ كَيْفَ تَصْنَعُ ». قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «تَعَفَّفْ».

- **الامتحان الأول**: إصابة الناس بجوع شديد لا يستطيعون الخروج من منازلهم لتأمين حاجاتهم بسبب شدة المحنة والخوف على النفس، وحتى إنهم لا يستطيعون الخروج إلى المسجد للصلاة.

- وبعد هذا الوصف من رسول الله ﷺ لهذه المحنة الكبيرة سأل ﷺ أبا ذر كيف تصنع في مثل هذه الحالة، فبين أبو ذر رضي الله عنه عجزه عن معرفة ما يجب فعله في مثل هذه الحالة، وأرجع المعرفة والعلم إلى الله عز وجل ورسوله ﷺ، فأشار النبي ﷺ إلى ما يجب فعله بقوله: «تَعَفَّفْ».

ووصية النبي ﷺ بالتعفف في هذه الحالة هي: أن يتحمل المسلم ما يحدث معه ومع أهله وأن يصبر على حاله ولا يسأل الآخرين شيئاً فالجميع يعيشون في وضع واحد في هذه الفتنة، وبتعففه وعدم سؤاله الآخرين، سيفتح الله عليه، وسيهيئ له الفرج العاجل والقريب.

- **وأما الامتحان الثاني**: قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتٌ شَدِيدٌ يَكُونُ الْبَيْتُ فِيهِ بِالْعَبْدِ -يَعْنِي الْقَبْرَ- كَيْفَ تَصْنَعُ». قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «اصْبِرْ».

في هذه الوصية إشارة أن في هذه المحنة سيكون الموت فيها شديداً في عدده وكيفيته، وفي هذه الوصية ثلاث كنايات في قوله ﷺ: يَكُونُ الْبَيْتُ فِيهِ بِالْعَبْدِ - يَعْنِي الْقَبْرَ-:

الأولى– من كثرة الموت يرخص البيت حتى يصبح ثمنه بثمن العبد، وهو ثمن زهيد.

الثانية– من كثرة الموت يرتفع ثمن القبر ليصبح بثمن العبد وهو ثمن مرتفع كما هو الحال الآن.

الثالثة– من كثرة الموت يصبح بيت الإنسان قبره أي يهدم البيت عليه فيدفن في بيته.

– ثم بين النبي ﷺ ما يجب فعله حينئذ فقال ﷺ: اصبر، وبالصبر فقط، لأن الصبر يحمل في طياته الرضا بقضاء الله ﷻ، وعدم الضجر أو السخط من قدر الله وتقديره.

الامتحان الثالث: بينه النبي ﷺ وهو يحدث أبا ذر قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً -يَعْنِي- حَتَّى تَغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ مِنَ الدِّمَاءِ كَيْفَ تَصْنَعُ».

المقصود حَتَّى تَغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ مِنَ الدِّمَاءِ، حجارة الزيت: اسم موضع بالمدينة يسمى الحرة -سمي بذلك لسواد حجارتها مع لمعانها وكأنها طليت بالزيت- والمقصود بهذه العبارة أن في هذه الفتنة ستكثر إراقة الدماء وتعلو هذه الحجارة وتسترها لكثرة القتلى، وكل ذلك كناية عن كثرة القتل وإراقة الدماء، وعلى عادة النبي ﷺ يصف المحنة ثم يأخذ رأي أبي ذر فيما هو صانع، فيظهر أبو ذر عجزه عن الجواب فيما يسمع، ويحيل الأمر إلى الله ورسوله، ويسأل النبي ﷺ أن يبين له التصرف الصحيح، فيقدم له النبي ﷺ الدواء الشافي.

قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «اقْعُدْ فِي بَيْتِكَ وَأَغْلِقْ عَلَيْكَ بَابَكَ».

ويلهم الله ﷻ أبا ذر أن يسأل النبي ﷺ حالة لا تخطر على بال، هذه الحالة وقعت معنا الآن في محنتنا.

قَالَ فَإِنْ لَمْ أُتْرَكْ. قَالَ: «فَائْتِ مَنْ أَنْتَ مِنْهُمْ فَكُنْ فِيهِمْ».

[أخرجه أحمد وابن ماجه]

كناية أن يسعى المسلم أن يهاجر ويجاور ويعيش مع من يطمئن إليهم من أهل الإيمان فيجلس معهم، حتى تنتهي المحنة ويأتي فرج.

[انظر شرح سنن ابن ماجه للسيوطي وحاشية الندي على سنن ابن ماجه]

● عودة لشرح وصية النبي ﷺ التي تتحدث عن النجاة:

- أما الوصية الأولى- فهي قوله ﷺ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ**».

● إشارة من النبي ﷺ إلى أن يحفظ الإنسان كلام اللسان، وقد استخدم النبي ﷺ كلمة أمسك، والصورة الذهنية للإمساك أن يخرج الإنسان لسانه ويمسكه بيده، فهو عند ذلك لا يستطيع أن يتكلم، وهذه صورة معنوية، ولا يمكن تطبيقها بهذا الشكل، لكن مراد النبي أن يحفظ المسلم لسانه، فلا ينطق بكلمة إلا عند شدة احتياجها من أجل تحقيق أمر يفيده، ويجلب له الخير.

● فعند اشتداد البلايا والمصائب والفتن، في مثل المحنة التي نعيشها، فإن تأثر الإنسان بها، يجعله يعبر عن إحساساته وأفكاره وتأثره بها ومعاناته لها بكلمات تنطلق من لسانه عن غضب دون وعي أو تفكير أو مسؤولية مما قد تجر له أموراً تكون أشد من البلاء الذي وقع فيه، ويظهر ذلك في حالات متعددة منها:

- **الحالة الأولى**: قد يعبر بلسانه أمام أناس لا يحملون أفكار تعبيره أو هم ممن يعادونه أو يبغضونه أو يحسدونه ويريدون الشر به، فيستغلون الفرصة

في ذلك، وما أكثر هؤلاء في هذا الزمان، وقد يكونون من الأقارب أو الأصدقاء، وكم سمعنا بهذه الأعمال والمواقف، وكان سببها خال أو عم أو صديق أو جار.

- وفي هذا الموضوع نتذكر القول المأثور: أخوك البِكْرِيُّ ولا تأمنه. [أخرجه أبو داود]

- ونتذكر قول الشافعي رحمه الله:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان

- **الحالة الثانية:** وقد يتكلم هذا الإنسان الذي اشتدت عليه المحنة في هذا الزمان بكلمات تودي به إلى ردة عن دينه، وغضب ربه، كأن يقول: (ما لك شايف يا ربنا ما يحدث فينا) و(وين عدلك يا ربي) و(طال فرجك يا الله) ومثل هذه العبارات التي تنطلق من لسان المسلم، ولا تحمل في طياتها رضاً وصبراً، بل نفاقاً واعتراضاً تودي بصاحبها إلى الردة، والمرتد يحبط عمله الصالح، وتطلق زوجته.

- وفي هذا المقام يقول الحسن البصري رضي الله عنه: عن الحسن قال: «لسان الحكيم وراء قلبه فإذا أراد أن يقول رجع إلى قلبه فإن كان له قال وإن كان عليه أمسك، وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ما جرى على لسانه تكلم به، ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه». [الزهد لأحمد بن حنبل]

- وعَنْ الصحابي الجليل سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ: «قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: «هَذَا». [أخرجه الترمذي]

- وقد قيل: (المرء مخبوء تحت لسانه فإن اللسان إذا تكلم أظهر ما بين الجوانح من يقين أو نفاق وكشف صاحبه أمام العدو والصديق).

- **الحالة الثالثة:** وهي أن المسلم أمام ما يعانيه من ضيق حال وضيق سكن وهجر لبيته وفقدان لعمله وماله، قد لا يملك نفسه فيؤذي الآخرين بلسانه، ويزيد ألم ومعاناة أهله وأحبابه.

● أما المسلم العاقل الواثق بربه، المؤمن بصدق وعده ووعيده، وحكمه وحكمته فإنه يعلم أن هذه الفتن هي ابتلاء وامتحان، وبقدر شدتها وآلامها عليه، فإنه يتوجب عليه الرضا والصبر والسلوان، راجياً من الله رفع الدرجات، وزيادة الحسنات، ومحو السيئات، وأن ينال رضا الله ﷻ ورضوانه، متيقناً في أعماق نفسه أنه مهما اشتدت المحنة، وكانت آلامها شديدة، ومهما كثرت وعظمت، وآلمت وقهرت، فإن الفرج آتٍ مع الثواب الجزيل من رب العالمين، ومع تبديل للأحوال، وتغيير للهموم والآلام بفرح وسرور، وعودة إلى خير أكثر من الخير الذي كان قبل الفتنة، وعيش رغيد، وحياة مطمئنة سعيدة (إن شاء الله تعالى).

● والمسلم العاقل هو الذي يملك نفسه ولسانه عند الغضب، وعند شدة البلايا والمصائب والفتن، لأنه يعلم أن الكلام لا يفيد، وأن أكثر الكلام يضر ولا ينفع، وأن الكلام لا يرد قدراً، ولا يرجع خسارة أو مفقوداً، ولا يبدل حالاً ولا يغيره، وأنه كما يقال يزيد الطينة بلة، فهو يمسك لسانه عن الكلام حتى لا يندم على ما يقوله.

● المسلم العاقل الموفق في هذا الزمان من يكثر من الذكر والاستغفار والدعاء والمناجاة ويكثر من قول (لا حول ولا قوة إلا بالله) (إنا لله وإنا إليه

راجعون) (حسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى، ونعم النصير) ويكثر من الدعاء: (اللهم الطف بنا وبأهلينا فيما جرت به التقادير) (اللهم الطف بالبلاد والعباد) ، (اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن).

● وفي هذا المقام ما أجمل أن نستمع إلى عظة وعظ بها أحد العلماء الصالحين في القرن السابع وهو أبو بكر بن عياش حيث قال: (اجتمع أربعة ملوك؛ ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر، -يتحدثون في أمر الكلام وأثره- فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل، وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني و لم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها و لم تملكني، وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه، وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت). [إحياء علوم الدين]

● من هنا نجد أن اللسان مجمع الأهواء، وجهاده من أشق الجهاد، وجهاد النفس أصعب من جهاد البدن، لأن البدن مأمور والنفس أمارة بالسوء، فعَن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود، أَنَّهُ ارْتَقَى الصَّفَا فَأَخَذَ بلِسَانِه، فَقَالَ: يَا لِسَانُ، قُلْ خَيْرًا تَغْنَمْ، وَاسْكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَمْ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: أَكْثَرُ خَطَايَا ابنِ آدَمَ فِي لِسَانِه.

[أخرجه الطبراني في الكبير]

اللهم أعذنا من شر لساننا، وقنا من زلته، وأعنا على استقامته.

● جاء في حكمة آل داود -عبرة ما أجمل الاعتبار بها- (ينبغي للعاقل اللبيب أن لا يشغل نفسه إلا في أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يلقى فيها إخوانه الذين ينصحونه في نفسه

ويخبرونه بعيوبه، وساعة يخلو بين نفسه وبين أَرَبِها -أي حاجاتها واستجمامها- فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عوناً على هذه الساعات، واستجمام القلوب بفضل بُلْغَة -قضاء هذه الحاجات- وينبغي للعاقل اللبيب أن يكون مالكاً للسانه، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه، مستوحشاً من أوثق إخوانه).

[أخرجه الديلمي عن ابن مسعود ﷺ في جامع الأحاديث]

الوصية الثانية- قول رسول الله ﷺ: «**وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ**».

- قال بعض الصالحين: (نعم صومعة المؤمن بيته، يكف فيه لسانه، ويحفظ نظره).

والمتمعن بدقة وتمحيص وعمق في هذا الوصية «وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ». وخاصة من كان يعيش في قلب المحنة في مثل ما نعيشه في هذه الأيام، فإنه يستنتج فوائد كثيرة ومواقف متعددة:

● منها ليكن بيتك أيها المسلم في مثل هذه الظروف وسعتك وملاذك حتى لا يصيبك أذى من التحرك هنا وهناك، وخاصة عندما يختلط الحابل بالنابل، ويصبح أمر كل إنسان من وراء شهوته، فلا عقل يرده، ولا دين يردعه، ولا قانون يمنعه.

● هنا يجب على الإنسان العاقل بقدر ما يستطيع أن يدخل بيته، ويحكم إغلاقه، ويقلل من حركته وذهابه وإيابه، وخاصة عند حلول الظلام.

● ومن الحكم المستفادة في هذا الزمان بل من الأمور الضرورية ألا تخرج امرأة صغيرة أو كبيرة من بيتها لا بمفردها ولا مع غيرها من الإناث، ولا أن تستقل حافلة خاصة إلا إن كانت مع والدها أو زوجها، والأفضل أن يسع النساء في هذا الزمان بيوتهن، ولا يخرجن إلا في نهار، ومع رجال يحمينهن،

فقد تغير الزمان زمان الأمان إلى حالة لا يأمن الرجل على نفسه فكيف يأمن على عرضه.

– وهناك معنى آخر في قوله ﷺ: «وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ» وإن ضاق عليك هذا البيت، فإن بيتاً ضيقاً تعيش فيه مطمئناً على نفسك وأهلك ومالك وعرضك خير لك من بيت أو مكان لا تأمن ذلك.

– وهناك معنى آخر في قوله ﷺ: «وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ» وإن ضاقت عليك نفسك أو على أهلك وأولادك وأطفالك الصغار، حيث تغيرت عليك عادات كنت تمارسها سابقاً وهي الخروج إلى هنا وهناك للراحة والتنزه وللاستجمام، وتغيير الروتين الذي نعيشه، وذلك من خلال نزهة يومية أو أسبوعية في عطلة الجمعة أو الأعياد أو في عطلة الصيف لننعم بهواء عليل، ومنظر جميل، وطعام شهي، وسباحة وألعاب تسر بها أنفسنا وأطفالك وتجدد بها حياتك ونشاطك، كانت هذه الأيام ومضت وتغيرت، وكان الأمان وتغير الحال وكما قيل دوام الحال من المحال، واليوم فإنك تعيش في محنة ينبغي أن تتعايش معها، وتعلم أن هذا الحال لن يدوم وسيكون الفرج قريباً إن شاء الله، والعودة إلى أفضل مما كنا في هذا الحال.

– وهناك معنى آخر في قوله ﷺ: «وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ» فيها إشارة أيضاً أن اجعل بيتك وسعة لك ولأهلك بأن توجد برنامجاً جديداً في حياتك يكون ضمن بيتك تحاول إدخال السرور على نفسك وأهلك، فلا تشغل وقتك كله في معرفة الأخبار هنا وهناك تنتقل من محطة فضائية إلى محطة أخرى، تحمل آلام وهموم الأخبار، فتنفعل بها وتتأثر حتى يظهر انفعالك وتأثرك في معاملتك مع أهل بيتك.

● أوجد برنامجاً مع أهل بيتك تقرأ فيه جزءاً من القرآن أو تشرح فيه حديثاً للنبي العدنان ﷺ أو تقرأ في كتاب سيرة للنبي ﷺ أو أخبار وسير الصحابة أو التابعين أو الصالحين وتراجمهم.

● اجعل برنامجاً تلعب فيه مع أطفالك وتدخل السرور عليهم حتى لا يتأثروا أو يخافوا من أصوات هذه القنابل وضجيج المدافع وغيرها مما يسمعون.

● إن الحفاظ على نفسية زوجتك أو أولادك أو أهل بيتك، وإشغالهم في عدم التفكير في ما يحدث، هو أثمن ما تقدمه لهم في هذا الفترة، فلا تعش بهموم هذه الفترة الشديدة، وحاول السيطرة على مشاعرك المؤلمة، ولا تشعر بها أهل بيتك، وحاول اغتنام حياتك في بيتك ببرنامج تعبدي تتقرب به إلى الله ﷻ، وتدخل السرور على أهلك فهو أعظم عمل تقوم به في هذا الوقت العصيب.

- ومعنى آخر في قوله ﷺ: «وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ» فإن الحوادث التي نعيشها في هذه الأيام والتي يضيق بها الصدر الرحب، ويكاد أحدنا أن يختنق وأن تصعد روحه علينا أن نتماسك نحن الرجال، وأن نصبر ونهدأ من روعنا، وأن نعلم أن حالة كل من في البيت هي حالة ضجر واضطراب وخوف وألم، فعلى الرجال منا أن نعقل ذلك وأن لا نزيد الطين بلة بضجرنا وغضبنا وأن نتحمل كل من في البيت من والدين أو زوجة أو أولاد، وأن لا نزيد بإثارة أعصابهم بضجرنا بل أن نكون الوعاء الذي يهدأ الجميع منتظرين الفرج القريب من الله ﷻ.

● وقد يقول قائل أين بيتنا الذي يتسع إلينا وقد هدم وننتقل من مكان إلى آخر غير مطمئنين ولا نعرف ماذا سيحل بنا أقول: إن البحث عن حماية الإنسان نفسه وأهله هو من أهم واجبات الشرع لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

- ولو أدى به الانتقال من بيت لبيت، ومن مكان إلى آخر، هذا قدرنا ويجب أن نتحمله.

- ووصية النبي ﷺ «وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ» تعني في هذا الوقت أيضاً أن البيت الذي تجد فيه حماية لنفسك من الأخطار التي تحيط بك أن تجده واسعاً ولو ضاق، وأن ترضى به ولو كنت تعيش مع كثافة من أهلك وجيرانك، فهذا وقت امتحان، وعلى المؤمن أن يصبر مع هذه المعاناة الشديدة من ترك لبيته الواسع وجلوس في بيت ضيق مع الآخرين علينا أن نصبر ونرضى فإن الشدة لا تدوم والفرج آت لا محالة بإذن الله سبحانه وتعالى.

الوصية الثالثة- قول رسول الله ﷺ **«وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»**.

- أي من معاني هذه الوصية إشارة إلى أن الإنسان عندما يعيش في طمأنينة وأمان وسعادة فترة من حياته كان وقتها قد انشغل عن الله ﷻ وغفل عنه، وكانت ذنوبه قد تكدست عليه، ولم يعد يحس بها، ففي هذه الحالة وقد تكدست عليك الفتن، ووقعت في حبالها، فأوجبت عليك ملازمة بيتك أن تجعل في برنامجك الرجوع إلى نفسك واسترجاع ماضيك وغفلاتك عن ربك وتذكر أخطاءك وذنوبك فتبكي عليها وتستغفر منها وتؤوب وتتوب إليه، وتستغفره وتناجيه.

مولاي إني عبدٌ ضعيف ... أتيتك أرغب فيما لديك
أتيتك أشكو مصاب الذنوب ... وهل يشتكى الضر إلا إليك
فَمُنَّ بعفوك يا سيدي ... فليس اعتمادي إلا عليك

- إن من السبعة الذين يظلهم الله ﷻ في ظل عرشه يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله (ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه).

- لذلك كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «اللهم ارزقني عينين هطالتين تبكيان بذرف الدموع، وتشفياني من خشيتك قبل أن يكون الدموع دماً، والأضراس جمراً». [الزهد والرقائق لابن المبارك]

- وكان الرجل الصالح محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى يمسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: (بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع).

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها واختم بالصالحات أعمالنا وألهمنا الصواب في كل حياتنا.

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

إذاً فإن وصية النبي ﷺ عندما تحل الفتن، ويكثر البلاء، ويعم الامتحان على الأمة الإسلامية، والتي يختلط بها الحابل بالنابل، ويتأذى بها الكثير من الأبرياء، ويموت فيها العديد من النساء والأطفال: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**».

۞ ۞ ۞

مناجاة:

هِـــيَ الأَيّـــامُ وَالعِبَـــرُ　　　وَأَمـــــرُ اللَـــهِ يُنتَظَـــرُ

أَتَيـــأَسُ أَن تَـــرى فَرَجـــاً　　　فَـــأَينَ اللَـــهُ وَالقَـــدَرُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة السادسة عشرة

اليقين دواء البلايا والمصائب والفتن

●من الأدوية الهامة في معالجة البلايا والمصائب والفتن دواء يسمى اليقين.

- وهذا الدواء لا يملكه إلا القليل من المؤمنين، وهم الذين يكونون على هدى من ربهم في الدنيا، فينالون الفلاح في الدنيا والآخرة، تحدث الله عز وجل عنهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٤-٥].

تتحدث هذه الآية عن إيمان المؤمنين المهتدين المفلحين، وقد ذكرت في هذه الآية كلمة يوقنون، وهي من اليقين، فمن هم المؤمنون أصحاب اليقين الذين يتصفون بالهداية والفلاح؟

●المؤمنون على ثلاث فئات:

- **فئة** إيمانها إيمان سطحي، ظاهري، ادعائي، آني، لا عمق فيه، ولا يصمد عند الامتحانات، مثلهم مثل الأعراب في قوله تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤﴾ [الحجرات: ١٤].

وقال تعالى في وصف أمثال هؤلاء: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال ﷻ في وصفهم أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ٨-١٠].

- **والفئة الثانية:** إيمانها إيمان عقل وعلم، ولم يدخل هذا الإيمان القلب، وهذه الفئة أيضاً لا تصمد أمام الامتحانات والمصائب بل يتزعزع إيمانها، ويظهر منها تأفف وعدم رضاً، وكلمات قد تخرجها من حيز الإيمان، ذلك لأن الإيمان لم يتغلغل في قلوبهم.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

- **الفئة الثالثة:** وهي التي تصمد عند الامتحانات والفتن لأن إيمانها إيمان يقيني لا يتزعزع ولا يتغير، إيمانها في أعماق القلوب، راضية عن كل ما يواجهها في هذه الحياة، صابرة على مشيئة الله وإرادته وتقديره، تدعو ربها في كل وقت وحين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

● ودواء اليقين هذا الذي نتحدث عنه هو خلق من أخلاق الصديقين والمؤمنين الصادقين، لا يتصف به إلا المخلصون والأولياء والموفقون، وهذا الدواء أي اليقين هو دواء قلبي يتعلق بالإيمان، فما معنى اليقين وما هو تعريفه؟

●**اليقين:** هو الإيمان العميق اليقيني الذي لا يغيره شيء، ولا يبدله حال، فاليقين هو الإيمان الكامل في أعلى رتبه، لذلك قال أحد العارفين: (اليقين من زيادة الإيمان).

●وهذا اليقين يستمد من التبصر والتعمق في آيات القرآن ومعانيها والعمل بها كما قال تعالى: وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿**هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ٢٠﴾ [الجاثية: ٢٠].

والمقصود بهذا أي القرآن.

- واليقين يدل على معنى الثبات مع الوضوح وهو العلم الذي انتفت منه الشكوك والشبهات، لذلك قال علي كرم الله وجهه: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً). [تفسير ابن حقي]

- وقال الإمام الجنيد رحمه الله في تعريف اليقين:

(اليقين: هو استقرار العلم الذي لا يغلب ولا يحول ولا يتغير في القلب). [الرسالة القشيرية]

- وقال السري السقطي رحمه الله: (اليقين سكونك عند جَوَلان الموارد، لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك، ولا ترد عنك مقضياً).

[فيض القدير: المناوي]

/والمقصود بسكونك أي رضاك وهدوؤك وحسن تصرفك، والمقصود عند جولان الموارد: أي عندما تأتيك الموارد بأن تمتحن بالمصائب المتعددة، وتبتلى بأنواع من البلايا الشديدة/.

- لذلك قال سهل بن عبد الله: (حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى). [الرسالة القشيرية]

• وعكس اليقين الشك والظن السيء بالله ﷻ، قال الله ﷻ واصفاً حالة الكافرين في موضوع الإيمان بقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢ ﴾[الجاثية: ٣١-٣٢].

– وكان النبي ﷺ كثيراً ما يوجه صحابته أن يسألوا الله ﷻ ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، ومن جملة هذا الخير اليقين، فقد روي عن أبي بكر الصديق ﵁ أنه قال وهو على منبر رسول الله ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: فِي هَذَا الْقَيْظِ أَوْ فِي مِثْلِ هَذَا الْقَيْظِ: سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْيَقِينَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. [أخرجه البزار]

– وقلَّ ما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسه حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه وفيه سؤال اليقين: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلاَ تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا». [أخرجه الترمذي]

– وكان النبي ﷺ يبين أن اليقين من أهم ما صلح عليه أول هذه الأمة فكان يقول: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد، واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل». [أخرجه أحمد في الزهد عن عبد الله بن عمرو ﵁]

– وعَنِ ابْنِ مَسْعُود، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لا تُرْضِيَنَّ أَحَدًا بِسَخَطِ اللَّه، وَلا تَحْمَدَنَّ أَحَدًا عَلَى فَضْلِ اللَّهِ، وَلا تَذُمَّنَ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، فَإِنَّ

رِزْقَ اللَّهِ لا يَسُوقُهُ إِلَيْكَ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلا يَرُدُّهُ عَنْكَ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي السَّخَطِ». [أخرجه الطبراني في الكبير]

- قال بعض الصالحين: (رأيت الجنة والنار حقيقة فعجب من سمعه، فقال: وكيف؟ فأجاب: رأيتهم بعيني رسول الله ﷺ، ورؤيتي له بعينيه ﷺ آثر عندي وآكد من رؤيتي لهما بعينيَّ، فإن بصري قد يطغى ويزيغ بخلاف بصره ﷺ فهو المقول فيه: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧].

[مدارج السالكين: ابن القيم]

أيها الإخوة: كلنا اطلع على التاريخ القديم للبشرية من عهد آدم عليه السلام إلى عهد الرسول ﷺ وذلك من خلال ما قصه الله علينا في القرآن الكريم، فأظهر لنا الصراع بين الحق والباطل، وبين الظلم والعدل، وبين الإيمان والكفر، وتبين لنا أن الصراع مهما دام ومهما طال ومهما عظمت الآلام والمحن والفتن، وعظمت معه الامتحانات والبلايا والآلام والأوجاع، فإن هذا الحال لا يدوم والعاقبة للمتقين.

● كما أننا سمعنا وعايشنا ورأينا أيضاً ما يحل بالأمم أثناء الكوارث والزلازل والأعاصير والحروب الكثيرة هنا وهناك وما فيها من خراب للبيوت وقتل للأنفس وسلب ونهب للمئات بل للألوف.

● واليوم نرى أن ما قرأناه عن القدماء وما شاهدناه في هذا العصر نرى أننا نمر على بلاء كبير وامتحان عظيم كثر فيه القتل والهرج والظلم والسلب للأموال والأعراض والنهب للبيوت والأرزاق، حتى أصبح المؤمن في حالة زلزال واهتزاز عقلي وفكري ونفسي وواقعي وحياتي ومعاشي.

هنا تظهر أهمية وقيمة صفة اليقين.

●اليقين يعني أن المؤمن يعلم أن خالق هذا الوجود هو الله ﷻ خلقه ليمتحنه، والامتحان مقدر وبأشكال متنوعة ومتعددة على كل البشر وذلك امتحان من الله لتتحقق النتيجة من هذا الامتحان، ولتظهر الحقائق واضحة من سيؤول إلى الجنة أو النار، وما هي درجة المؤمن في درجات الجنة في عظيم الجنان، وجزيل الجزاء من الله الرحمن.

●اليقين يعني أن الله قادر على كل شيء، وهو المقدر لكل شيء، والعالم بكل شيء، ولا يجري شيء في هذا الكون إلا بقدره وإرادته ومشيئته.

●واليقين يعني أن ما قدر سيقع بالشكل والكيفية التي يريدها الله تعالى.

اليقين يعني قول الله ﷻ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التوبة: ٥١].

قال الشاعر:

لا تكثر همك ما قدر يكـــون القضا تحتم فـــالزم الـــسكون

- واليقين يعني ما وصى به النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». [أخرجه الترمذي]

-واليقين ما جاء في وصية النبي ﷺ لزيد بن ثابت: «وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ». [أخرجه أحمد]

●ومن اليقين أن يعلم المسلم أن قدر موته مقدر زمنه ووقته وساعته ومكانه وهو في بطن أمه لا يتقدم ولا يتأخر، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤].

●وتتحدث هذه الآية عن الفرد والجماعة، لكن شكل الموت مقدر من الله بالفجأة أو بمرض عضال أو بحادثة معينة لكن موت الشهيد منحة ربانية، فالشهيد يموت في وقت موته ولكنه يفضل بالشهادة، فللشهيد حياة خاصة عند ربه وله رزق معلوم بخلاف من مات موتاً عادياً، وللشهيد أيضاً حياة خاصة في الآخرة وثواب كبير، وله المكانة الثالثة بعد الأنبياء والصديقين التي يتمناها كل مسلم ويطلبها في كل ركعة صلاة:

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

- فمن هم الذين أنعم الله عليهم بينهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

- وبين الله خصوصية الشهيد فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩].

- وقد بين النبي ﷺ من هم الشهداء فقال: «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ الْمَطْعُونُ (بآلة حادة أو المقتول ذبحاً أو الميت بالطاعون)، وَالْمَبْطُونُ (من مات بسبب مرض داخلي)، وَالْغَرِيقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

●ومن اليقين أن ما يحدث لنا هو امتحان من الله عز وجل، والمتيقن بالله لا يجعل الجزع ولا الفزع ولا الخوف ولا الحزن يسيطر عليه، منتبهاً ألا

تصدر منه أقوال أو تصرفات لا ترضي رب العالمين، ومهما عظم البلاء واشتد، ومهما آلم وأوجع، فهو راضٍ عن الله صابر لحكم الله ينتظر فرج الله.

- مردداً ما روي في الخبر عن موسى: أوّل ما كُتب لموسى عليه السلام:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]، من رضي بحكمي واستسلم لقضائي وصبر على بلائي كتبته صديقاً وحشرته مع الصدّيقين يوم القيامة.

ومن لم يصبر على بلائي ويرضَ بقضائي ويشكر نعمائي فليتخذ ربّاً سواي. [قوت القلوب: أبو طالب المكي]

●ومن اليقين أن الأحوال لا تدوم بل هي متغيرة ولكل شيء نهاية، ونهاية العسر فرج، ونهاية الصبر فلاح ونجاح، ونهاية الضيق فرج، وكل شيء يعوض، فالشهيد مات بالوقت الذي قدر له مع تقدير مكانة عالية له، والمهاجر يرجع، والمهدم يبنى، والألم يزول، والشكر يدوم، واليقين هو ما يجلب سعادة الدارين.

- كان عطاء الخراساني -وهو من التابعين الكبار- لا يقوم من مجلسه حتى يقول: (اللهم هب لنا يقيناً بك حتى تهون به علينا مصائب الدنيا، وحتى نعلم أنه لا يصيبنا إلا ما كتب علينا، ولا يأتينا من هذا الرزق إلا ما قسمت لنا به). [أعمال القلوب: خالد السبت]

●ومن اليقين أن يحمد المسلم ربه على كل حال وخاصة عند الابتلاء.

- قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِرَجُلٍ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلانُ؟» قَالَ: أَحْمَدُ اللَّهَ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ مِنْكَ».

[أخرجه الطبراني عن عَن عَبْد اللَّه بن عَمْرو رضي الله عنه]

- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «إن كنا لعلنا أن نلتقي في اليوم مراراً يسأل بعضنا بعضاً عن حاله وما نريد بذلك إلا الحمد الله ﷻ». [أخرجه عبد الله بن المبارك في الزهدوالرقائق]

●ولليقين ثلاث درجات:

الدرجة الأولى- علم اليقين: وهو قبول ما ظهر من أوامر الله ﷻ ونواهيه وشرعه ودينه على ألسنة رسله الكرام، فنتلقاه بالقبول والانقياد والإذعان والتسليم.

الدرجة الثانية-عين اليقين: وهي أن يرى الإنسان علم اليقين مشاهدة بالعين المجردة.

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٥-٨].

الدرجة الثالثة- حق اليقين: فهي ذوق لليقين الذي آمنا به في الدنيا من المغيبات وما فيها من ثواب ولذة وسرور وطرب، كرؤية الله جهرة عياناً يوم القيامة، وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة، فالإيمان بالله والمغيبات في الدنيا هو علم اليقين، وعين اليقين وحقه يتأخر إلى وقت اللقاء يوم القيامة.

●وقد مثل العلماء هذا المراتب الثلاث للفهم والتقريب بمن أخبرك أن عنده عسلاً، وأنت لا تشك في صدقه فهذا علم اليقين ثم أراك إياه فازددت يقيناً فهذا عين اليقين ثم ذقت منه وتلذذت بمذاقه فهذا حق اليقين.

اللهم اجعل إيماننا يقينياً حتى نراه يوم القيامة عين اليقين ونذوقه حق اليقين.

●لقد بلغ الصحابة الكرام مبلغ اليقين في كل ما رباهم عليه النبي ﷺ بل كانت أرواحهم تنتقل من علم اليقين إلى عين اليقين وحق اليقين وذلك من

صفاء قلوبهم وعمق إيمانهم نرى ذلك متجلياً في حالة الحارث بن مالك الأنصاري، حيث إنه مر برسول الله ﷺ، فقال له: كيف أصبحت يا حارث؟ «قال: أصبحت مؤمناً حقاً (أي بلغ حد اليقين)، قال: انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ «فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت لذلك ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يعذبون)، فقال: يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً. [أخرجه البيهقي]

اللهم اجعلنا من أهل اليقين، وثبتنا بقولك الثابت عليه.

وتعالوا ندع بدعاء أهل اليقين: (أحمدك ربي على كل قضائك، وجميع قدرك، حمد الرضا بحلمك، واليقين بحكمتك).

۞ ۞ ۞

مناجاة:

كن عـــن همومـــك معرضـــا — وكـــل الأمـــور إلى القـــضا
وابـــشر بخـــير عاجـــل — تنسى بـــه مـــا قـــد مـــضى
فلـــرب أمـــر مـــسخط — لـــك في عواقبـــه رضـــا
ولربمـــا اتـــسع المـــضيق — وربمـــا ضـــاق الفـــضا
الله يفعـــل مـــا يـــشاء — فـــلا تكـــن متعرضـــا
الله عـــودك الجميـــل — فقس على مـــا قـــد مـــضى

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة السابعة عشرة

التقوى دواء البلايا والمصائب والفتن

● قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

● إذا اشتكى أحدنا من مرضٍ عضال مؤلم، أوجعه ليل نهار، فإنه يسرع إلى استشارة أفضل الأطباء والمختصين بالأمراض العضال، فإن شفي من دواء طبيب تابع الدواء، وإن لم يُشفَ أسرع إلى طبيب آخر، ثم طبيب، ثم طبيب، وهكذا حتى يجد الدواء المناسب.

● وقد يضيف إلى دواء طبيب دواء طبيب آخر، فيستعمل عدة أدوية علَّ بتجمعها تكون سبباً في شفاء مرضه.

● إننا نعاني جميعاً اليوم من مرضٍ أشد، وآلاماً أكبر من الأمراض العضال، إنه امتحان هذه الفتنة الذي آلمنا أشد الألم، بل أوجعنا بالكثير من الأوجاع، وحرك فينا الكثير من المنغصات التي ما كنا نأبه لها، كلنا في هذه المحنة نعاني معاناة لا حد لها ولا حصر، الكثير منا قد ترك بيته، والكثير منا قد تهدم بيته، والكثير منا فقد عمله، والكثير فقد ماله، وبعد أن كنا في نعم كثيرة، افتقدنا هذه النعم، وأصبحنا نعيش في هذا الضيق والألم، هذا الألم الذي لا يوصف، آلاماً جسدية، وآلاماً نفسية، وآلاماً فكرية، وآلاماً اجتماعية، وآلاماً إنسانية، آلام وآلام، وحالة لا يشتهيها الإنسان لعدو أو حاسد، فكيف إذا ألمت بنا وبأهلنا، آلام لم يعرف التاريخ مثلها، وما ذكر التاريخ مثل وصفها.

●والمؤمن في هذا الحال، وقد ألم أن هذا الحال الصعب لا يمكن أن يزول إلا بعناية الله ﷻ، والالتجاء إليه، والاعتماد والتوكل عليه.

●فأسرع المؤمن إلى أدوية ربانية لهذه الآلام الشديدة وهذه الأوضاع الصعبة، فاستعمل دواء الصبر والرضا، واستعمل دواء الدعاء والالتجاء، واستعمل دواء الصدقة وتقديم المساعدة للآخرين بكل أنواعها، لكنه وجد أن الشفاء لم يحصل والفرج تأخر.

●والسؤال هل هناك دواء آخر يجب أن نلتجئ إليه؟

نعم هناك دواء ذكره الله تعالى، وتحدث النبي ﷺ عنه في سيرته وأحاديثه إنه طريق التقوى.

●في سورة من سور القرآن يتحدث الله ﷻ عن هذا الدواء الشافي لجميع العلل، والمعافي لكل الأسقام، يقول الله ﷻ في هذه السورة:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾ [الطلاق: ٥].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق: ٤].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢-٣].

- إذاً من يستعمل دواء تقوى الله فإنه: يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا .

- ومن يستعمل دواء تقوى الله فإنه: يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا .

- ومن يستعمل دواء تقوى الله فإنه: يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا .

- لاحظوا دواء التقوى في هذه الآية، وما يحدث من شفاء عند الشدائد والمصائب والفتن والبلايا.

إذاً **أولاً-** يجعل الله له مخرجاً من كل ضيق يعانيه، ومن كل هم يتلبسه، ومن كل مصيبة تقع عليه، ومن كل فتنة تركبه.

ثانياً- يرزقه الله رزقاً يحتاجه في هذه الظروف الصعبة من حيث لا يحتسبه، ولا يظن حدوثه، ولا يخطر على باله.

ثالثاً- في هذه الآية إشارة لهذا المؤمن المتألم المصاب، المريض بالأمراض الكثيرة التي عددناها إلى أن اعتمادك كائن هنا أو هناك، وتفكر في فرج يأتيك من اليمين أو اليسار، وانتظرت طويلاً، وتشعبت الأمور، واختلط الحابل بالنابل حتى كدت تيأس من حالك، فضاق صدرك، وقسا قلبك، وضاقت عليك الدنيا بما رحبت، وكاد اليأس والقنوط أن يملأ كيانك ووجودك، وأصبحت لا تعرف هل الحياة خير أم الموت، في هذه الحالة الصعبة يأتيك دواء من الله، ونداء رباني، فيقول لك: اترك الجميع، ولا تفكر بما يحدث، ولا تربط آمالك بأحد، فالآمال منقطعة، والرجاء من الآخرين قد فشل وما عليك إلا أن تلتجئ بِكُلِّيَتِكَ، وتتجه نحو ربك، فتتوكل عليه فهو حسبك، ولن تحتاج لغيره، فهو القادر المقدر، وهو المغير للأحوال والمبدل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾.

● لأهمية هذا الدواء دواء التقوى، ذكره الله في قرآنه مع اشتقاقه ٢٦٩ مرة، وما ذكرت كلمة في القرآن بمثل هذا العدد.

● والتقوى كلمة جامعة شاملة، قليلة اللفظ كثيرة المعنى، شاملة لخيري الدارين وهي تعني التزام المؤمن الكامل لأداء أوامر الله وفرائضه، والتمسك

بشرعه ودينه مع الاستقامة على ذلك، واجتناب المحرمات والمنهيات الذي ذكرت في القرآن والسنة، عرفها سيدنا علي ﷺ بقوله: (التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتتريل، والرضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل).

● وعرفها العلماء أن لا يراك الله حيث نهاك وأن لا يفقدك حيث أمرك.

● وأعلى درجات التقوى الورع، قال النبي ﷺ لأبي هريرة ﷺ: «كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ». [أخرجه ابن ماجه]

– وقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل لا يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به بأس». [أخرجه الحاكم في المستدرك عن عطية بن سعد]

● يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

– يشير الله ﷻ إلينا في هذه الآية إلى أننا إذا أردنا تغيير واقعنا، وما نحن عليه في هذه الفتنة الكبيرة، وأردنا استعمال دواء التقوى أن نغير ما كنا عليه قبل الفتنة من أحوال النفاق والفسوق والفجور والمعاصي والغفلات، واتباع الهوى والشبهات، وإضاعة حق الله وحقوق الناس، وإهمال التمسك بشرع الله ودينه، والعودة إلى الله وإلى تقواه، حتى يغير الله حالنا إلى أفضل حال، وإلى أن يأتينا الفرج والنصر القريب، وحتى نطمئن في بيوتنا، ويعم العمران في منازلنا، ونعود إلى أعمالنا، وراحة بالنا، وطمأنينة أنفسنا، وشرح صدورنا.

وذلك بالعودة إلى الله، من خلال أن نجلس مع أنفسنا، فنعلن توبتنا الصادقة النصوح لله ﷻ، ونبكي بكاء الثكالى والأطفال حزناً من تقصيرنا وما كان من هفواتنا السابقة، ونعقد العزم على التمسك بشرع ديننا حق

التمسك، وبتقوانا حق التقوى، والالتزام بذلك والاستقامة عليه ما دمنا في هذه الحياة بعد أن نعيد حقوق الآخرين التي أخذناها منهم خلسة أو غفلة أو عناداً أو جهلاً أو غشاً أو غبناً، فالقانون الإلهي يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

– نعم لا يغير الله ما بنا إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا وأعمالنا من عقوق الوالدين إلى برهم، ومن قطيعة الرحم إلى وصلها، ومن أكل حقوق الإخوة والأيتام والجيران والمعارف إلى رد حقوقهم وأداء ما لهم علينا، لابد أن نغير غيبتنا وحسدنا وحقدنا وكرهنا للآخرين إلى محبة وتعاون وإيثار ومساعدة وتفقد وتقديم الخدمات لكل من حولنا، لابد أن نغير العجب فينا والكبر والتكبر على الآخرين إلى مودة وألفة واجتماع ومساندة، لابد أن نترك الاحتكار والغش وحب التسلط على الآخرين وسرقة أموالهم إلى البذل والعطاء والتواضع وعمل الخير في جميع جوانبه وفروعه.

– اللهم تب علينا، واغفر لنا ما مضى من ذنوبنا، وسامحنا عن أخطائنا وغفواتنا، وقوِّ إرادتنا في طاعتك ومحبتك والثقة بك والتوكل عليك وحسن الظن بك.

– اللهم غير حالنا إلى أفضل حال، وأذهب الغمة عن هذه الأمة، وأقر أعيننا برضاك عنا، ورفع سخطك، وأن تختار لنا الأمان والاستقرار والهدوء والعمران والسرور والحبور مع العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

● ويجب أن نعلم أن من التقوى طلب الحلال، والبعد عن الحرام، فالمؤمن الحق يتمسك بالحلال مهما بعد وقلَّ وصعب أمره، ويبتعد عن الحرام

مهما اقترب وكثر وسهل أمره، فإذا اشتبه عليه شيء بينهما تركه وابتعد عنه حتى لا يقترب من الحرام، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ». [أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه]

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة الثامنة عشرة

دروس مستفادة من غزوة الأحزاب

●قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ ﴾ [الأحزاب: ٩].

●من دروس السيرة النبوية ما يسمى بغزوات النبي ﷺ، ومن غزواته ﷺ غزوة بدر وأحد والخندق وغيرها.

●وفي كل غزوة من غزوات النبي ﷺ عبر وحكم ودروس يستفاد منها في مجريات أحداث الزمان المتوالية مع الأيام.

●سنتحدث عن غزوة الأحزاب التي تسمى غزوة الخندق، هذه الغزوة سميت بغزوة الأحزاب لتحزب أي تجمع أعداء الإسلام من كل مكان من أكثر قبائل العرب وعلى رأسهم قريش، وتآمر اليهود معهم.

●وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الغزوة في سورة سميت بسورة الأحزاب، فقد تجمع هؤلاء الأعداد ما بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألف مقاتل، واتجهوا نحو المدينة على ميعاد كانوا قد تعاهدوا عليه فيما بينهم لقصد القضاء على النبي ﷺ وصحبه ﷺ.

●المؤمن الحق الذي يؤمن بربه حق الإيمان، والذي يثق به كامل الثقة، والذي يعرف ربه حق المعرفة، ويعلم أن الله ﷻ هو الواحد الأحد الفرد

الصمد الذي بيده ملكوت السماء والأرض وهو على كل شيء قدير، وأنه سبحانه هو القاهر فوق عباده، وأنه تعالى يدافع عن الذين آمنوا بعد أن يعدوا كل ما يستطيعون من قوة، ويأخذوا حذرهم، ويقدموا كل إمكاناتهم، فإنهم بعد ذلك على ثقة كبيرة بربهم أنه ﷻ لا يخذلهم، وأن النصر حليفهم لأن الله ﷻ معهم مؤيداً وحافظاً وناصراً.

●لما علم النبي ﷺ بجموع الأعداء، وتقدمهم نحو المدينة، خرج مع ثلاثة آلاف إلى أطراف المدينة ونزلوا بظهر جبل سَلْع، وهنا الامتحان والاختبار للمسلمين بهذا العدد القليل كيف يصدون ذلك العدد الكبير؟ ماذا يعملون؟ ما هي الخطة للنجاة والانتصار؟

●عندما يكون المؤمن صادقاً مع الله، فإن الله يصدقه ويحميه، فالمؤمن يردد في مثل هذه المواقف، قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢].

- وقوله ﷻ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: ٣٨].

- ويردد قول النبي ﷺ لأبي بكر وهما في غار ثور وقريش تلاحقهم وقد اقتربت منهما: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

وعندما يكون حال المؤمن في مثل هذه المواقف بهذا الإيمان العميق بالله، والثقة الكبرى به، يتحقق قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣].

●والمخرج من الأزمات يأتي للمؤمنين المتقين من عالم غيب الله ﷻ بأسباب بسيطة ضمن قانون الله في **خرق العوائد**.

●في هذه الغزوة غزوة الأحزاب (الخندق) كان أول المخارج الإلهية من هذه الفتنة الكبيرة أن هيأ الله الصحابي الجليل سلمان الفارسي ﵁ الذي أشار على النبي ﷺ بحفر خندق، وهو من وسائل الدفاع يستعمل عند الفرس، و لم تكن العرب تعرفه، فأسرع النبي ﷺ للاستجابة للفكرة وبدأ الحفر في السهل الواقع شمال غرب المدينة وهو الجانب المكشوف الذي يخاف معه اقتحام العدو، وأما الجوانب الأخرى فكانت محصنة بالجبال والأشجار والوديان، وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة ألاف ذراع وعمقه بين سبع أذرع إلى عشرة، وعرضه تسعة فأكثر.

●تحدثت كتب السيرة عن هذه الغزوة وجاء فيها:

- قام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم في عملهم هذا. ففي البخاري عن سهل بن سعد، قال : كنا مع رسول الله في الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتادنا (أكتافنا)، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا عَيشَ إلا عيشُ الآخرة، فاغفرْ للمهاجرين والأنصار».

- وعن أنس ﵁: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأي ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيشَ عيشُ الآخــــرة فاغفر للأنـــصار والمهـــاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الــذين بــايعوا محمــداً	على الجهاد مــا بقينــا أبــداً

- وفيه عن البراء بن عازب ﷺ قال: رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبارُ جلدةَ بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب ويقول:

اللهم لولا أنت مــا اهتــدينا	ولا تــــصدقنا ولا صـــلينا

فَــأَنْزِلَنْ ســكينةً علينــا	وثبـــتِ الأقــدامَ إن لاقينــا

إن الأُلى قــد بغــوا علينــا	وإن أرادوا فتنــــة أبينـــا

●عندما تواجه المصاعب المؤمنين الصادقين الذين فوضوا أمورهم إلى الله ﷻ، واستعانوا به عندما تواجههم المصاعب كل المصاعب ومنها مصاعب الحياة فهم لا يأبهون لهذه الصعاب لأن قلوبهم مع الله، وهم على ثقة أن الله ﷻ لن يتخلى عنهم وسيكفيهم تلك المصاعب، ويؤمن لهم تلك المتطلبات من عالم غيبه ومشيئة إرادته وقدر خيره.

- وهذا ما حدث مع الصحابة الكرام، وهم في هذا الموقف الصعب وهم يقومون في حفر هذا الخندق بأيديهم ذلك العمل الشاق الذي يعجز عن حفره آلات حفر متعددة.

●أثناء حفر الخندق وقعت أدلة على معجزات النبي ﷺ منها:

أولاً- أن جابر بن عبد الله رأى في النبي ﷺ خمصاً شديدًا (جوعاً شديداً) فذبح بهيمة، وطحنت امرأته صاعاً من شعير، ثم التمس من رسول الله ﷺ سراً أن يأتي في نفر من أصحابه، فقام النبي ﷺ بجميع أهل الخندق، وهم ألف، فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا، وبقيت بُرْمَة اللحم تغط به كما هي، وبقي العجين يخبز كما هو.

- وجاءت أخت النعمان بن بشير بحَفْنَة من تمر إلى الخندق إلى النعمان ليتغذى به أبوه وخاله، فمرت برسول الله ﷺ، فطلب منها التمر، وبدده فوق ثوب، ثم دعا أهل الخندق، فجعلوا يأكلون منه وجعل التمر يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه يسقط من أطراف الثوب.

ثانياً- وأعظم من ذلك ما روي عن جابر: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدْية شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق. فقال: (أنا نازل)، ثم قام وبطنه معصوب بحجر -ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذواقاً- فأخذ النبي ﷺ المِعْوَل، فضرب فعاد كثيباً أهْيل أو أهْيم ، أي صار رملاً لا يتماسك.

(الكدية) الأرض الغليظة أو الصلبة لا تعمل فيها الفأس. [القاموس المحيط]

- وقال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء وأخذ المعول فقال: (بسم الله)، ثم ضرب ضربة، وقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة». ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: «الله أكبر، أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن». ثم ضرب الثالثة، فقال: «بسم الله»، فقطع بقية الحجر، فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني». [أخرجه أحمد]

● هكذا تحدث النبي ﷺ عن معجزة فيما يؤول إليه الإسلام في مستقبل الأيام في ذلك الوقت الصعب، والموقف الرهيب، والفتنة الكبرى، والصحابة في خوف شديد، والمنافقون يتآمرون، في هذه الحالة يبشرهم النبي ﷺ وأي بشارة بنصر أكيد، وفتح مبين، وهذا حال المؤمن الصادق مع الله ﷻ في كل

المواقف الصعبة التي تواجهه بأن لا يخاف من هذه المصاعب، وأن يستعين بالله عليها، وأن يكون على ثقة بالنصر والفتح الأكيد من الله عَزَّوَجَلَّ.

- اللهم فاجعلنا أهلاً للثقة بك، واجعلنا أهلاً لنصرك وفرجك.

● كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع ما يفتت الأكباد، قال أنس: كان أهل الخندق يؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإِهَالَةٍ سنخة (دهن قديم قد تغير طعمه ولونه) توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق ولها ريح .

- وقال أبو طلحة: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْجُوعَ وَرَفَعْنَا عَنْ بُطُونِنَا عَنْ حَجَرٍ حَجَرٍ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَجَرَيْنِ. [أخرجه الترمذي]

- وفي هذه الغزوة يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]

● عندما أقبلت الأحزاب بجموعها وأعدادها الكبيرة، خاف المسلمون خوفاً شديداً، وقد وصف القرآن الكريم في سورة الأحزاب هذا الخوف بكلمات معبرة عن أحوالهم فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

- وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ : كناية عن الخوف والفزع الشديد.

- ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ : أي اختبرهم الله عَزَّوَجَلَّ، فظهر المخلص من المنافق.

●أي جاؤوكم من أعلى الوادي من جهة المشرق ومن أسفله أي من جهة المغرب، فزاغت أبصاركم، وفزعتم فزعاً شديداً، وبدأت الظنون تأخذ مجراها، والخوف يتسلل إليكم، فمنكم مؤمن ثابت الإيمان لا يتزحزح عن موقفه، واثق بنصر الله ووعده، ومنكم منافق مريض الاعتقاد ظن أن المعركة ستستأصل محمداً وصحبه وستنتصر قريش والمشركون، وحينئذ اختبر الله المؤمنين، فظهر المخلص من المنافق، ووقع ذلك كوقوع الزلزال الشديد، فمن ثبت منهم هم المؤمنون حقاً، ومن استبد القلق فيهم هم المنافقون الذين ظهرت حقيقتهم في هذا الموقف الصعب، وهكذا الامتحانات الربانية في كل زمان ومكان تأخذ مجراها ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾.

– فالمنافق يتزعزع ويخاف، بل ويصبح عالة على المؤمنين بينما ثقة المؤمنين بربهم تزيدهم عزيمة وإقداماً مهما قويت المحنة واشتدت، ومهما طالت وامتدت.

●كذلك يصف الله ﷻ حال المنافقين ضعفاء الإيمان في وقت الفتنة والشدة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾** ﴾ [الأحزاب: ١٢].

– المنافقون في الفتن بلاؤهم أشد من الأعداء لأن الأعداء معروفون، ولكن المنافقين يسوقون الأوهام، ويضعفون الهمم، وهم يتغلغلون بين المؤمنين.

●يقول هؤلاء المنافقون إن وعد الله بالنصر لعباده لا حقيقة له ولا أصل، ثم يرد الله سبحانه وتعالى على الخائفين ضعفاء الإيمان بقوله ﷻ: ﴿**قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾**﴾ [الأحزاب: ١٦].

●أي أخبرهم أيها الرسول أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم، ولا يطول أعمارهم، ولن ينالوا من الدنيا ومتاعها إلا ما قدر لهم، ثم أبان الله ﷻ ما تقدم معرّفاً لهم قدرته الكاملة عليهم فقال ﷻ: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٧].

●بعد هذا الامتحان الشديد للمؤمنين في هذه الغزوة وثبات المؤمنين الصادقين في مواجهة أعداء الدين مع الفرق الشاسع بينهم وبين أعدائهم في العدد والعدة جاء نصر الله المبين من الله ﷻ دون أي خسارة تذكر، ودون تخطيط إلا من قبل رب العالمين الذي تكفل بنصر المؤمنين وذلك بقانون **خرق العوائد** الذي يظهر عند العجز البشري عن رد العدوان بعد تقديم كل جهد مستطاع يبين الله ذلك في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩].

● فكيف كان النصر؟ وكيف هيأ الله أسبابه؟

- سببان لم يحسب لهما حساب قدرهما الله من عالم غيبه:

السبب الأول: أن هيأ الله رجلاً من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود ابن عامر الأشجعي ﵁ جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد، فَخذِّلْ عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة».

فذهب من فوره إلى بني قريظة -وكان عشيراً لهم في الجاهلية- فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت.

قال: فإن قريشاً ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم؟

قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي .

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش وقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي لكم؟ قالوا: نعم.

قال: إن يهود بني قريظة قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

- فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥هـ -بعثوا إلى يهود بني قريظة: أنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُرَاع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود بني قريظة إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم.

- وكان المسلمون يدعون الله تعالى: (اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا) ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «اللّهم مترل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللّهم اهزمهم وزلزلهم». [أخرجه البخاري]

السبب الثاني: جنديان من جنود الله، فأما الجندي الأول فهو جند الخوف حيث أرسل الله جنداً من الملائكة يزلزلوهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف، فدبت الفرقة بينهم وسرى بينهم التخاذل فأصبحوا في حالة اضطراب وفزع شديد، وأما الجندي الثاني الرباني فهي الريح الشديدة التي أرسلها الله ﷻ عليهم، فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قِدراً إلا كفأتها (قلبتها)، وألقت بها بعيداً، ولا بصيص نور إلا أطفأته، فاضطرب المشركون وظنوا أن المسلمين قد باغتوهم، فأصبحوا يهرولون هنا وهناك فزعين، وأسرعوا بالهروب متفرقين، واستيقظ المسلمون على هذا الصخب والضجيج ينظرون إلى بعضهم بعضاً ماذا حدث.

- فأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحالة، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى المدينة، واستقبله النساء والأطفال بفرحة كبيرة وسرور عظيم.

- اللهم كما هيأت للنبي ﷺ هذه الأسباب فهيئ لنا أسباب الفرج والطمأنينة والأمان برحمتك يا أرحم الراحمين.

● من دروس هذه الغزوة غزوة الأحزاب أن النبي ﷺ ما كان يفتأ بعد كل الاستعدادات التي هيأها لصد هذا العدوان أنه ﷺ كان يكثر من الدعاء

والالتجاء إلى الله ﷻ، وكذلك كان حال جميع المسلمين، وهكذا يجب أن يكون حالهم بعد كل فتنة ومنحة تواجههم.

- فقد كان المسلمون يدعون الله تعالى: (اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا)، ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: (اللّهم مترل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللّهم اهزمهم وزلزلهم).

۞ ۞ ۞

مناجاة:

قال الإمام الزمخشري في مجمع الحكم والأمثال:

وكمْ للّهِ من لطــفٍ خفــيٍّ يدقُّ خفاهُ عن فهمِ الــذكيِّ
وكم يُسْرٍ أتى من بعدِ عُــسْرٍ مفرِّجِ كربةَ القلب الــشجيِّ
وكم أمرٍ تُساءُ بــه صــباحاً وتأتيــكَ المــسرَّةُ بالعــشيِّ
إِذا ضاقَتْ بكَ الأحوالُ يوماً فثقْ بالواحدِ الفــردِ العلــيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة التاسعة عشرة

دروس مستفادة من سورتي الضحى والانشراح

● بين الله ﷻ في سورة العصر أن الإنسان على نوعين: الأول الخاسر، والثاني الرابح الفائز، كما بين أن أكثر الناس هم من أهل الخسران، وذلك لعدم اتباعهم نهج الرحمن وسنة النبي العدنان ﷺ، وأن الرابحين والفائزين هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات، ويتواصون بالحق والصبر، وهم أقلة في المجتمعات الإنسانية عبر السنين.

- قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر: ١-٣].

● وهؤلاء المؤمنون الفائزون قد يصيبهم في بعض الأحيان امتحان وبلاء وفتن وبلايا وضيق وجفاء ومصائب متنوعة، فيلتجئون إلى الله ﷻ بالدعاء طالبين الفرج، وفي كثير من الأحيان تتأخر الإجابة ويتأخر الفرج وهم في هذه المواقف على نوعين:

الأول- المؤمنون المذنبون، المستهترون والغافلون عندما يقع مثل هذا الأمر معهم فإنهم يرجعون هذا التأخر إلى ذنوبهم وغفلتهم عن الله ﷻ، وما ارتكبوه من بعد عنه تعالى فإذا بهم يراجعون أنفسهم، ويتوبون إلى الله وينيبون إليه، فيبكون ويتضرعون ويعاهدونه على الصدق والاستقامة والصلاح.

أما النوع الثاني- وهم المؤمنون الصادقون المستقيمون المحافظون على شرع الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، فإنهم في هذه الحالة يُرجعون التأخر إلى امتحان

الله لهم لرفع درجاتهم، وزيادة حسناتهم، ومحو سيئاتهم، فتجدهم راضين عن الله ﷻ، صابرين على امتحانه، منتظرين فرجه يرددون قوله سبحانه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

●وكلا النوعين هم على ثقة بالفرج القريب، ولا يسمحون لليأس والقنوط أن يداخلهم، ثقتهم بالله كبيرة و علمهم به أن ﷻ جابر الخواطر لا يتخلى عن عباده، وهو ناصر ومؤيد لهم، وسوف يفرج كروبهم، ويحقق آمالهم، ويمنحهم العطاء والفضل والسرور والحبور والسعادة في الدارين.

- ولنا على ذلك قدوتنا المثلى رسول الله ﷺ حيث بين لنا ذلك ﷻ قائلاً: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

●وفي هذه الحالة التي نتحدث عنها قصة حدثت مع سيدنا محمد ﷺ، حيث إنه لما أوحى الله إلى النبي ﷺ وبعثه رسولاً إلى هذه الأمة، كان سروره بالوحي و تلقي كلمات الله تعالى أعظم شيء عنده، ملك قلبه وفؤاده وشرح صدره وأناره.

●لا يماثله سرور ولا يضاهيه عطاء، ثم في فترة من الفترات انقطع هذا الوحي عنه مدة من الزمن فحزن النبي ﷺ كثيراً لذلك، وأخذه التفكير يمنة ويسرة في سبب هذا الجفاء وعدم نزول الوحي، وزاد من همه وغمه حديث من حوله من القريبين والبعيدين في هذا الموضوع.

- عن زيد بن الأرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا يترل عليه الوحي، فأتته أم جميل امرأة أبي لهب فقالت: يا محمد ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك. [أخرجه الحاكم]

- وعن عبد الله بن شداد أن خديجة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: (ما أرى ربك إلا قد قلاك). [أخرجه ابن جرير]

- قال ابن حجر: فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك، لكن أم جميل قالته شماتة، وخديجة قالته توجعاً.

- والنبي ﷺ على هذا الحال، وإذا بجبريل يترل بالوحي شارحاً الأمر وموضحاً له بسورة الضحى ثم الانشراح.

●قبل الحديث في شرح السورتين، لابد من أن ألفت الأنظار إلى بعض الأمور الهامة:

أولاً- يجب أن تعلم أن ما ورد في القرآن الكريم من قصص أو آيات تتحدث في موضع خاص لأشخاص معينين، أن نعلم أن هذه الخصوصية في الذكر تحمل عمومية في المعاني والمقاصد التي تحتويها تلك الخصوصية، لأن الله ﷻ ذكر هذه الخصوصية لأخذ العبر منها، ولكي نسقطها على أنفسنا وواقعنا، فنستفيد من مقاصدها في كل أمر من أمور حياتنا.

ثانياً- في القرآن الكريم سور ترتبط بسور أخرى حتى إن بعض العلماء يعتبرون السورتين سورة واحدة، ومن هذه السور على سبيل المثال: سورة الضحى التي ترتبط بسورة الانشراح.

ثالثاً- يبدأ الله ﷻ سورة الضحى بالقسم: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ .
وهنا لابد أن نستوعب أمراً هاماً في حياتنا:

●أسلوب القسم عامة يستعمل للتأكيد على مضمون القسم، والإنسان المسلم يقسم بأعظم شيء عنده وهو الله ﷻ، ولا يجوز له أن يقسم إلا بالله ﷻ، أما الله ﷻ وهو خالق المخلوقات، فإنه يستعمل أسلوب القسم بأن

يقسم بمخلوقاته التي لها مكانة عند الإنسان، ليبين له أهمية هذه المخلوقات للاستفادة منها واستغلالها في حياته.

●وهنا يقسم الله ﷻ بالضحى وهو أول النهار والليل إذا سجى أي إذا سكن وغطى بظلامه الأشياء ليدل على عظمتها عند الإنسان وأهميتها له فحياته قائمة على نهار وليل أي على زمن يتسارع بين نهار وليل، ليستغل الإنسان هذا الوقت فيما يفيد حياته لآخرته.

●ومن إشراقات معنى الضحى والليل، أن الليل مهما طال ظلامه فإن نهاراً مشرقاً لابد أن يأتي بعده، وهكذا نحن اليوم، لابد بعد الظلام أن يأتي النور، وبعد الخوف أن يأتي الأمان، وبعد السواد أن يأتي البياض، وبعد الضيق أن يأتي الفرج، وبعد الحزن أن يأتي السرور والحبور.

رابعاً– سورة الضحى تتألف من إحدى عشرة آية:

– آيتان قسم: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١–٢].

– وتسع آيات تنقسم إلى ثلاثة ثلاثة.

– الآيات الثلاث الأولى هي وعد من الله للنبي ﷺ ولكل الصادقين.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٣–٥].

– والآيات الثلاث الوسطى هي تذكير وتوضيح لمنة الله ﷻوفضله على النبي ﷺ ولكل المؤمنين الصادقين.

﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ٦–٨].

- والآيات الثلاث الأخيرة هي وجوب رد الجميل، والتزام الواجبات الشرعية، وهي أيضاً للنبي ﷺ ولكل المؤمنين من بعده.

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ٩-١١]

- اللهم نسألك التعجيل في التفريج لحالنا، فقد اشتد الأمر علينا.

●كلنا يرى ويسمع ويشاهد حال إخواننا المهجرين خارج البلد في المخيمات المتعددة، وكذلك من هاجروا إلى أماكن متعددة داخل البلد سورية الحبيبة، وخاصة في هذه الأيام المثلجة، والبرد القارس، وفي غياب الكهرباء ووسائل التدفئة المتعددة، وصاحب الإيمان والضمير والإنسانية، لابد أن يتأثر بما نسمعه ونراه، ولعل بعضنا تدمع عيناه أمام هذه الحوادث والمشاهدات التي لم يعرف مثلها في تاريخ البشرية.

●وإذا كنا لا نستطيع أن نفعل شيئاً إلى أولئك الذين يجلسون في المخيمات إلا التأثر والبكاء مع الالتجاء إلى الله والدعاء بأن يفرج عنا وعنهم قريباً عاجلاً.

●أليس بوسعنا أيها الإخوة أن نقدم شيئاً لمن حولنا من هؤلاء المهجرين من مناطق سورية المتعددة، فنتفقدهم وننظر إلى حاجاتهم الضرورية، فنقدم لهم ما نستطيع من معونة ومساعدة وتخفيف لبعض معاناتهم وبقدر استطاعتنا لعل ذلك يكون استمطاراً لفرج الله ورحمته في التفريح عنا قريباً عاجلاً.

●أيها الإخوة كثير من هؤلاء المهجرين وهم أشد فقراً من غيرهم ما استطاعوا أن يهاجروا إلى المخيمات، وما استطاعوا أن يستأجروا البيوت في

الأماكن الأقل عنفاً، فجلسوا بجواركم وجانبكم، جلسوا في حدائق دمشق ينظرون إليكم وإلى كرمكم وإيمانكم وأخلاقكم العالية في حبكم للآخرين وإيثاركم لهم عند الشدة.

- تحدثنا سابقاً عن مقدمة عن سورة الضحى، وأنها تتألف من إحدى عشرة آية، آيتان قسم، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ١-٢].

والآيات التسع الأخرى كل ثلاث منها لها معنى مرتبط بها.

- الآيات الثلاث الأولى هي وعد من الله للنبي ﷺ ولكل الصادقين.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٣-٥].

- في هذه الآيات خاطب الله ﷻ نبيه ﷺ رداً على ما قيل له بأن الله قد ودعه وقلاه، فقال سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣].

● أي ما قطعك ولا قلاك ولا أبغضك، وهذا يخص النبي ﷺ.

●وفي المعنى العام لهذه الآية أن الإنسان المؤمن إن كان مخلصاً في اتباعه لأوامر ربه، ومنتهياً عن نواهيه، ومنضبطاً في الشرع في سلوكه وتصرفاته، فابتلاه الله في حياته بالمحن والفتن فأصابه ضيق وقسوة وآلام وفتن وبلاء شديد، فإن ذلك لا يدل على بغض الله له وتركه، وإنما يعتبر هذا المؤمن ذلك امتحاناً من الله له، فيجب أن يصبر على ذلك ويرضى، أو أن ذلك هو محو لسيئاته، وزيادة في حسناته، ورفع لدرجاته، فينبغي عليه التحمل والصبر مع الرضا والشكر.

●ولنعد إلى سورة الضحى بعد ذلك، فقد بشر الله ﷻ نبيه ﷺ بأن مستقبله أفضل من ماضيه فقال ﷻ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

- أي أن ما سيأتي في مستقبل أيامك فهو خير مما أنت عليه حالياً، فأنت الآن في ضيق وحرج، ولكن سيأتي يوم تعلو كلمة الحق ويعلو شأنك وستنتصر على أعدائك، يؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «عرض عليَّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي، فسرني». [أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما]

- وكذلك أيضاً فإن الدار الآخرة خير لك من هذه الدار بما سيكرمك الله ﷻ في الدار الآخرة.

● وفي المعنى العام لهذه الآية بشرى لكل المؤمنين الذين امتحنهم الله ﷻ بالفتن والمصائب فرضوا عن الله وصبروا متيقنين بأن المستقبل الذي سيأتي هو خير مما عانوه من هذا البلاء الكبير، فإن المستقبل سيكون مشرقاً بإذنه الله تعالى فيه خير وبركة وسعادة وهدوء بال، وحياة كريمة مشرقة.

● كذلك فإن آخرتك أيها المؤمن الصادق الصابر الواقف على باب الله الراضي بقضائه هي خير لك من هذه الدنيا الممتلئة بالآلام والمصائب والبلايا.

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾.

- روى الخطيب أنه ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «إذاً لا أرضى وواحد من أمتي في النار».

● أي لسوف يمنحك ربك عطاء جزيلاً ونعمة كبيرة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فهو الفتح المبين في الدين، وأما في الآخرة فهو الثواب والحوض والشفاعة لأمتك، فترضى به.

● وأما في المعنى العام أي أيها المسلم الصادق المستقيم الراضي عن الله الصابر لحكم الله عليك أن لا تيأس مما حل بك مما تعانيه وخاصة في المحن

فإنك لا تغيب عن الله والله يعلم ما أنت عليه من الإيمان واليقين والثقة به سبحانه، فإن وعد الله ﷻ لك أن يعطيك عطاء جزيلاً، لم تكن لتفكر به، وسيعوضك عن خسرانك، فترضى لهذا العطاء الكبير والمنحة العظيمة، فيزول همك، ويسر خاطرك وينشرح صدرك، ويطمئن قلبك، وتشرق ابتسامتك من جديد، وتعود الحياة السعيدة إليك أفضل مما كنت عليه سابقاً.

●أما الآيات الثلاث الوسطى هي تذكير وتوضيح لمنة الله ﷻوفضله على النبي ﷺ ولكل الصادقين.

﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: ٦-٨].

﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾.

● في الخطاب الخاص بالنبي ﷺ ألم يجدك ربك يا محمد يتيماً لا أب لك، فجعل لك مأوى تأوي إليه، وهو بيت جدك عبد المطلب وعمك أبي طالب، فإن النبي ﷺ فقد أباه وهو في بطن أمه، أو بعد ولادته، ثم توفيت أمه بنت وهب، وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة.

●وفي المعنى العام لهذا الخطاب فهو خطاب لكل يتيم، وكيف منَّ الله عليه، فهيأ له من يكفله، فكم من يتيم عاش في كنف كفيل أفضل مما يمكن له أن يعيش بين أبويه، وكم من عظيم كان يتيماً، فالشدائد تخلق الرجال بما يمن الله عليهم من منح وفضل منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وتقدير.

- وفي معنى آخر فإن كثيراً من الناس عاشوا وكأنهم أيتام من شدة الفقر والمعاناة ولكن الله ﷻ آواهم وهيأ لهم حياة سعيدة سعدوا بها في حياتهم.

- فكثير منا يذكر حياته الأولى الممتلئة بالفاقة والحاجة والشدة والألم، لكن الله ﷻ غير وبدل، وهيأ وتفضل، فإذا بهذا الإنسان يصبح ذا شأن ومكانة ورفعة وزيادة ولو كشف أحدنا تاريخ حياته وما مر عليه من صعوبات، وما كان عليه من الشدة والفقر والقسوة، ثم كيف تفضل الله عليه، وهيأ له أسباب السعادة والرفعة والكرامة، لوجدنا الكثير منا قد مر على هذه الحالة.

- علينا إذاً أن لا ننسى ما فضل الله علينا وأعطانا من سابغ نعمه.

- واليوم فإن الشدة التي تمر علينا لن تدوم، وأن الحال الذي نعانيه سَيُغيَّر بإذن الله ويزول وسيؤيدنا الله وينصرنا ويفرج حالنا إلى حال فيه السعادة والهناء والسرور والحبور والرفعة والسؤدد إن شاء الله تعالى.

- وأنا لا أتكلم هذا الكلام جزافاً وأمانياً، وإنما استقراءً لواقعنا الذي نعيش وللحال الذي يكتنفنا، وإسقاطاً على ما جاء في الآيات الكريمة المتعددة، وما وعدنا به ربنا وما بشرنا به نبينا ﷺ، فإن حالنا هذا لن يدوم، وإن معاناتنا ستزول بإذن الله، وإن الفرج قريب والتأييد أكيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى: ٧].

● في المعنى الخاص بالنبي ﷺ أي وجدك الله غافلاً عن أحكام الشرائع حائراً في معرفة أصح العقائد، فهداك لذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ ﴾ [الشورى: ٥٢].

●أما المعنى العام الذي يرتبط بكل مؤمن، فهي منة من الله ﷻ علينا، أولاً أن جعلنا مسلمين، وتزيد المنة والفضل من الله على أحدنا إن كان أحدنا ينتمي إلى أسرة محافظة مرتبطة بالدين، وهناك منة أخرى من الله على بعض المؤمنين أن جذبهم إليه بغير إرادتهم، فكم من مسلم ضل الطريق عن الله في سابق حياته، ووقع في الغفلات والمعاصي والآثام، فمن الله عليه بطريقة معينة فاستغفر وأناب وتاب ورجع إلى الله وصار من كبار الصالحين وأخذ يقبل على الله إقبالاً لا نظير له ليعوض ما فاته من الخيرات في سابق أيامه.

أما قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: ٨].

●في المعنى الذي يخص النبي ﷺ أي وجدك فقيراً ذا عيال لا مال لك، فأغناك بربح التجارة في مال خديجة، وبما منحك الله من البركة والقناعة.

●أما في المعنى العام فأكثرنا كان في سابق أيامه فقيراً لا مال له، ولا بيت خاص يؤويه، فمن الله عليه فتزوج، وصار له بيت وأولاد ومال وأعمال وسيارة وغير ذلك من نعم الله علينا التي لا تعد ولا تحصى.

- كل ذلك فضل من الله ومنة ربما لا يستحقها أحدنا، ولكنه كرم الله وعطاياه الذي يفيض على بعض عباده، فوجب علينا الشكر والحمد والاستجابة لله، لنحافظ على عطاياه، وعلينا عدم الغفلة عنه حتى لا يحرمنا مما أعطانا وتفضل علينا به.

- اللهم فاجعلنا لك من الشاكرين على ما أنعمت به وأجزلت، وتمم فضلك علينا بالفرج عنا، وعودة حالنا إلى أفضل مما كنا إنك أنت السميع القريب اللهم آمين، آمين.

●الآيات الثلاث الأخيرة في سورة الضحى هي وجوب رد الجميل والتزام الواجبات وهي أيضاً للنبي ﷺ ولكل المؤمنين من بعده.

﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ [الضحى: ٩-١١]

- فقد تحققت في أخلاق النبي ﷺ وتصرفاته وبقي علينا أن نحققها في أخلاقنا وتصرفاتنا على أكمل وجه كما يحبنا الله ويرضى.

●سورة الضحى تتصل بسورة الانشراح لتناسبها في الجمل والموضوع، لأن فيهما تعداداً لنعم الله تعالى على نبيه ﷺ مع تطمينه وحثه على العمل والشكر، حيث قال في سورة الضحى: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ أضاف هنا وعطف ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾.

- ولهذا ذهب بعض السلف إلى أهما سورة واحدة لاتصالهما بالمعنى.

●موضوع سورة الشرح أو الانشراح أو ألم نشرح تتحدث عن شخصية النبي ﷺ وما أمده الله به من نعم عظيمة تستحق الحمد والشكر، وقد اشتملت على أمور أربعة:

أولاً- تعداد ثلاث نعم أنعم الله بها على نبيه المصطفى ﷺ، وهي:

١- شرح صدره بالحكمة والإيمان.

٢- وتطهيره من الذنوب والأوزار.

٣- ورفع مترلته ومقامه وقدره في الدنيا والآخرة.

- قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ١-٤].

- وذلك بقصد إيناسه عما يلقاه من أذى قومه الشديد في مكة والطائف وغيرهما.

- فقد شرح الله ﷻ صدره للإسلام وجعله نبياً لخاتم الأديان، ووضع عنه حمله الثقيل الذي كان عليه، ولاقاه في دعوته، ورفع ذكره بالنبوة، وختم الرسالة به،وإنزال القرآن العظيم عليه.

- وتكليف المؤمنين بالقول بعد الشهادة الأولى: (أشهد ألا إله إلا الله) بالشهادة الثانية: (وأشهد أن محمداً رسول الله).

- عند دخول الإنسان الإسلام، وفي الآذان والإقامة، وفي التشهد، وفي خطبتي الجمعة وغيرها من الخطب، وأمر الله عباده بكثرة الصلاة والسلام عليه، وأمرهم سبحانه بطاعته وجعل طاعته طاعة لله تعالى.

- وَعَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي وَرَبَّكَ، يَقُولُ: كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ، قَالَ: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي. [أخرجه ابن حبان في صحيحه]

●هذا في المعنى الخاص في هذه الآيات بما يخص النبي ﷺ، وفي المعنى العام يجب أن يراجع المسلم نفسه ما كان عليه قبل هذه المحن، وكيف أن الله ﷻ شرح صدره للإيمان، ونور قلبه للإسلام، وألهمه قراءة القرآن، ورغبه بأعمال الخير والصلاح، وشرح صدره بعطائه الله له النعم والخيرات، فكان سعيداً موفقاً ميموناً.

●وكيف منَّ الله على المؤمنين بقبول توبتهم عند رجوعهم إليه، ومغفرته لهم، ومسامحته عنهم، وكأن أمراً لم يكن، بل وصف الله فرحه بما حدثنا به النبي ﷺ: «لَلّهُ أشدُّ فْرَحا بتوبةِ عبده -حين يَتُوبُ إليه- من أحدِكم

كان على راحلته بأرضٍ فلاة فَانْفَلَتتْ منه، وعليها طعامُه وشرابهُ فَأَيسَ منها» فأتَى شَجرة فاضطَجَع في ظِلِّها قد أيسَ من راحلته فبينا هو كذلك، إذا هو بها قائمةٌ عنده، فأخذ بخِطامِها، ثم قال من شِدَّة الفرح: «اللهم أنت عَبْدي وأنا ربكَ، أخطأ من شدة الفرح». [أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه]

●وفي المعنى العام لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ تذكير لكل مسلم ألا يتباهى بمكانته وعمله ورأس ماله وبيته وأملاكه وما وصل إليه ظاناً بنفسه أنه من وراء جهده وعقله وعرقه وتعبه، فالمسلم الحق لا يغفل أبداً عن الله عز وجل، ولا ينسى أن ذكره الحسن بين الناس، وما وصل إليه من غنى ورفعة وجاه، إنما هو فضل من الله وعطاياه، وهذه المحنة التي نعيشها اليوم تذكر المتذكر، وتذكر الغافل عن الله، كيف أن الله سلب الكثير منا مما كان عليه من حياة رغيدة، وعيش هنيء، ومال كثير، وجاه عريض، ذهب فجأة، وضاع كله بلحظة، وتغير الحال، ومهما كان السبب في ذلك، والمسبب لذلك، فلابد من عبرة من أن المعطي الحقيقي للنعم هو الله لا من تبجح الإنسان وظنه بنفسه القدرة والذكاء والفهم والفطينة، علّ هذا الدرس والفرج قريب بإذن الله مع ثقتنا أن الله سيعيد حالنا إلى أفضل حال، عسى هذا الدرس يعيدنا إلى الله، وإلى التمسك بالله، وعدم الغفلة عن الله، والعودة إليه إلى أفضل ما كنا عليه من التمسك بشرع الله وأوامره.

والأمر الثاني في سورة الانشراح، وعد الله في المعنى الخاص لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم بتيسير المعسر، وتفريج الكرب عليه، وإزالة المحن والشدائد، وتبشيره بقرب النصر على الأعداء: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥-٦]

●في هذه الآيات رداً على المشركين الذين كان يعيرون الرسول ﷺ بالفقر أي إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً، وإن مع الضيق فرجاً، وقد أكدت على ذلك الجملة الثانية، وفي هذا بشارة لرسول الله ﷺ، وتسلية له أنه سيبدل حاله من فقر إلى غنى ومن ضعف إلى عزة وقوة، ومن عداوة قومه إلى محبته، وقد حصل كل ذلك للنبي ﷺ.

●وفي المعنى العام لكل المسلمين في هاتين الآيتين بأن فيهما وعداً من الله ﷻ، في كل عصر بأنه سيكون بعد العسر يسراً، قاعدة ربانية تشمل جميع المسلمين في كل زمان ومكان، فبعد كل عسر يصيبهم لابد أن يأتي اليسر، ويشمل اليسر يسر الدنيا ويسر الآخرة ويسر العاجل والآجل.

- ويقول العلماء: إن التعريف يدل على القلة، والتنكير يدل على الكثرة، وقد جاء العسر في الآيتين معرفاً، وجاء اليسر منكراً أي مهما كان العسر فإنه سيكون قليلاً أمام كثرة اليسر وعظمته وخيره، يؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «لو كان العسر في جحر ضب لتبعه اليسر حتى يستخرجه لن يغلب عسر يسرين». [أخرجه عبد الرزاق عن ابن مسعود رضي الله عنه]

أما الأمر الثالث في هذه السورة، فهو أمر الله ﷻ لنبيه ﷺ بمواظبة العبادة، والتفرغ لها بعد القيام بتبليغ الرسالة شكراً لله على ما أنعم عليه: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ .

●أي إذا فرغت من تبليغ الدعوة والجهاد في سبيل، وفرغت من مشاغل الدنيا وعلاقاها، فأتعب نفسك في العبادة، واجتهد في الدعاء، واطلب من الله ﷻ حاجتك، وأخلص لربك النية والرغبة، وفي هذه الآية دليل على طلب

الاستمرار في العمل الصالح والخير والمثابرة على الطاعة، لأن استغلال الوقت مطلوب شرعاً، وإن الله يكره العبد البطال.

●أما في المعنى العام في هذه الآية هو توجيه من الله ﷻ، وطلب لكل مسلم وعلى مر العصور أن عليك واجباً يجب أن تحافظ عليه دائماً، حين تفرغ من أعمال الدنيا أن تنصب نفسك لعبادة الله وطاعته، وفي العمل الصالح والخير والبر مع المثابرة الدائمة على الطاعة والعبادة.

- ونحن اليوم بأشد الحاجة، وقد كثر الفراغ عندنا بسبب الحال الذي نعيشه، فقل الشغل والعمل، وكثر التواجد في المنازل خوفاً على أنفسنا وأهلينا، فوجب علينا ألا نضيع جل وقتنا بالانشغال بالتلفاز والأحاديث التي لا فائدة منها، والأمور التافهة التي تسلبنا أغلى ما عندنا وهو وقت حياتنا.

●واجبنا أن نضع برنامجاً يومياً جماعياً مع أهلنا نجتمع فيه على أداء الصلوات جماعة وفي أوقاتها، وأن نحافظ يومياً أن نقرأ ما تيسر من أجزاء القرآن، وحبذا أن نوزع فيما بيننا أجزاء القرآن، فنختم ختمة يومياً نرجو فيها من الله ﷷ أن يفرج عنا ما أهمنا وأغمنا.

- كذلك أن نجعل في برنامجنا ذكراً لله ﷻ، وتسبيحاً وتكبيراً مع المحافظة على جميع النوافل التابعة للصلوات الخمس مع الضحى والأوابين وصلاة التوبة والحاجة والتسابيح وصلاة قيام الليل وعلى الأخص التهجد قبل الفجر، وليكن في تهجدنا جميعاً بكاء وسؤال لله أن يفرج عن هذه الأمة، وأن يذهب الغمة، وأن يختار لنا خيرة طيبة موفقة فيها عودة إلى أفضل حال وأحسن مقام.

أما الأمر الرابع في هذه السورة، فقد أمر الله ﷷ نبيه المصطفى ﷺ بعد كل شيء بالتوكل عليه سبحانه والرغبة فيما عنده، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾.

●أما المعنى العام الذي يخصنا من هذه الآية وخاصة في حالنا الذي نعيشه، وجب علينا أن نرغب إلى ربنا، وأن نقبل عليه، وأن نجعل التجاءنا إلى الله وتوكلنا عليه وحده، وأن نضرع إليه بحاجاتنا، وأن لا نيأس أبداً مما يمر علينا، ولنكن على ثقة دائماً أن الفرج من الله قريب، وستكون لنا عزة وكرامة وسؤدد ونجاح وسرور بإذن الله تعالى.

۞ ۞ ۞

مناجاة:

قال أبو محجن الثقفي:

عسى فرجٌ يأتِي بــه الله إنَــه ... له كلَّ يومٍ في خليقتــه أمــرُ

عسى ما ترى ألاَّ يدوم وأن ترى ... له فرجاً ممَّا ألحّ بــه الــدَّهرُ

إذا اشتدَّ عسرٌ فارج يسراً فإنَّه ... قضى الله أنَّ العسر يتبعه اليسرُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقفة العشرون

دروس مستفادة من سورتي الفيل وقريش

●بينت سابقاً أن هناك بعض السور يرتبط بعضها ببعض، وتحدثت عن سورتي الضحى والانشراح، وأتحدث عن سورتين ترتبطان ببعضهما هما سورة الفيل وسورة قريش.

●فقصة الفيل هي أن أبرهة بن الصباح الأشرم، وكان قائداً على اليمن من قبل ملك الحبشة، وهو جد النجاشي الذي عاصر النبي ﷺ، بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحج، فسمع بذلك رجل عربي من بني مالك بن كنانة، فخرج إليها فدخلها ليلاً فتغوط فيها، فأغضب أبرهة ذلك، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها، فجهز جيشاً عظيماً مصحوباً بعدد كبير من الفيلة الضخمة، فخرج أبرهة في الحبشة سائراً إلى مكة، ولما اقترب جيشه من مكة أمر بنهب أموال العرب وممتلكاتها، وكان فيها إبل لعبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ، وبعث أبرهة رجلاً إلى مكة ليأتيه بأحد أشرافها، فدلوه على عبد المطلب بن هاشم، فلما رآه أبرهة جلّه، وسأله عن حاجته.

فقال عبد المطلب: حاجتي أن ترد علي بعيري الذي أصابه جيشك.

– فقال أبرهة: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت فيك، قال: لِمَ؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك، وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمه، لم تكلمني فيه وتكلمني في بعير لك أصبتها؟ قال عبد المطلب: أنا

رب الإبل وللبيت رب سيمنعه منك. قال: ما كان ليمنعه مني، قال: فأنت وذاك فأمر بإبله فردت عليه.

- خرج عبد المطلب فأخبر قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرّقوا في الشعاب، ويتحرّزوا في رؤوس الجبال تخوّفاً عليهم من معرّة الجيش، وأتى عبد المطلب الكعبة فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يـــا رب لا أرجـــو ســـواكا   يا ربّ فامنع منـــهم حماكـــا
إنّ عدوّ البيت مـــن عاداكـــا   امـــنعهم أن يخربـــوا قراكـــا

وقال أيضاً:

اللـــــهم إن المـــــرء يمنـــــع   رحلـــــه فـــــامنع حمـــــاك
لا يغلـــــــبن صـــــــليبهم   ومحـــــالهم عـــــدوا محالـــــك
جـــــروا جمـــــوع بلادهـــــم   والفيل كي يـــسبوا عيالـــك
عمـــــدوا حمـــــاك بكيـــــدهم   جهلاً ومـــا رقبـــوا جلالـــك
إن كنت تـــاركهم وكعــــــ   ــبتنـــا فـــأمر مـــا بـــدا لـــك

- ثم ترك عبد المطلب حلقة الكعبة، وهو على ثقة كبيرة أن قريشاً إن لم يكن بإمكانهم دفع هذا الشر عنهم وعن بيت الله الحرام، وأن قوتهم قد ضعفت عن ذلك، ولم يبق لديهم حيلة ولا قدرة على فعل شيء، فإنه لابد من هذا الالتجاء إلى الله ﷻ الذي يحق الحق، ويرد الظالم، ويحمي بيته وأهل بيته، ولما وصلت قريش إلى شعاب جبال مكة التفت عبد المطلب فإذا هو بطيور من نحو اليمن جهة البحر فقال: والله إنها لطيور غريبة ما هي بنجدية ولا تهامية، وكان مع كل طائر أحجار تحملها بمناقيرها وأرجلها، فألقتها عليهم، فكانت لا تصيب منهم أحداً إلا هلك.

- وفرَّ الجيش هاربين نحو اليمن يتساقطون في الطريق، وأصيب أبرهة في جسده، وبدأت أنامله تسقط أنملة أنملة، ولحمه يتساقط حتى قدم به صنعاء، فمات شر ميتة، و لم يبقَ من الجيش إلا رجلٌ واحد حتى إذا ما وصل إلى ملك النجاشي، وأخبره الخبر ألقى طائر من تلك الطيور الحجر الذي في فمه، وكان يسير فوقه وهو في مسيره إلى الملك، فمات جميع من كان في هذا الجيش.

● وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في التاريخ وبين العرب، فأعظموا قريشاً، وقالوا هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو، وازدادوا تعظيماً للبيت، وإيماناً بمكانه عند الله ﷻ.

● وأراد الله بهذا الحادث تعظيم شأن البيت وتهيئة العرب لحمل رسالة الإسلام إلى العالم كله.

● كما كانت هذه الحادثة درساً للمؤمنين جميعاً عبر السنين والأيام، أن المؤمنين الصادقين عندما لا تبقى بين أيديهم حيلة لما يمر عليهم من فتن ومصائب أن يلجؤوا إلى الله ﷻ واثقين بالله أن لديه من الوسائل والجنود ما لا تخطر على بال، يحمي بها عباده الصالحين من شرور جميع البلايا والمصائب والفتن التي تواجههم.

● وكان ذلك الحدث التاريخي المهم في عام ميلاد النبي ﷺ، سنة ٥٧٠م، أي كان بين عام الفيل ومبعث النبي ﷺ أربعون سنة، وكان قد بقي بمكة جَمْعٌ شاهدوا تلك الواقعة، وقد بلغت حد التواتر حينئذ، فما ذاك إلا إرهاص للرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [الفيل: ١-٥].

●أنزل الله ﷻ بعد ذلك سورة قريش، فقال سبحانه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ١-٤].

●ففي كلتا السورتين تذكير بنعم الله ﷻ على أهل مكة، فسورة الفيل تشتمل على إهلاك عدوهم، الذي جاء لهدم بيت الله الحرام أساس مجدهم وعزهم، وهذه السورة تذكر نعمة أخرى اجتماعية واقتصادية ترتبط بحادثة الفيل، فما أن رأت قريش هذه المعجزة من الله ﷻ، واهتمام كافة العرب بهم إلا أن التفوا حول بعضهم البعض، فحقق الله بينهم الألفة واجتماع الكلمة، وأكرمهم بنعمة الأمان والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار، والإمساك بزمام الاقتصاد في الحجاز، فكانوا يقومون برحلتين للتجارة اللتين أنعمهم الله عليهم، فرفع من شأنهم، ووسع عليهم في اقتصادهم، رحلة في الصيف إلى الشام، ورحلة في الشتاء إلى اليمن، بحرية ومنعة، ودون أي عقبات.

- أما رحلة الصيف إلى الشام، فذلك لجلب الحبوب الزراعية، لكون حصادها في الصيف.

- وأما رحلة الشتاء لليمن فكانت لجلب العطور والبهارات الآتية من الهند والخليج.

- ولولا الأمن الذي منحه الله ﷻ لقريش من وراء تقدير العرب لهم بعد حادثة الفيل لم يقدروا على هاتين الرحلتين لأن بلاد العرب لا تخلو من اللصوص والأشرار الذين يغيرون على القوافل الأخرى.

●بعد أن ذكر الله ﷻ ما أنعم الله على أهل بيته وهم قريش بنعمتين:

أولاهما: دفع الضرر عنهم، كما ورد في قصة الفيل.

وثانيهما: جلب النفع كما بين ذلك في سورة قريش.

- ولذلك قال العلماء: دفع الضرر عن النفس واجب، أي حماية الإنسان لنفسه من أي ضرر يواجهه في حياته أو فتنة تقع عليه بأن يتبصر واقعه، وأن يتخذ قراراً سريعاً يحمي نفسه وأهله دون تأخير.

- أما جلب النفع فهو يأتي بالدرجة الثانية.

●ولقد أمر الله ﷻ قريشاً، وهو أمر عام لكل الناس، -وذلك بعد أن وضح لهم أنه ﷻ هيأ لهم دفع الضرر عن الناس، ونصرهم على أعدائهم- أنه لابد أن يطلبوا بعد ذلك، جلب النفع عن طريق تآخيهم ومحبتهم ومساعدتهم لبعضهم البعض، والالتفات إلى التعاون على بناء مجتمعهم بناء سليماً، وخاصة في موضوع العمران والاقتصاد، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾.

●فالمعنى العام لهذه الآية أنه يجب على الناس -بعد أن يمن الله عليهم بدفع الضرر عنهم مما واجههم من بلايا ومصائب وفتن- عليهم:

أولاً- أن يتوبوا إلى الله توبة نصوحا.

ثانياً- أن يعاهدوا الله على التغيير الحالي من غفلة وتقصير في تطبيق شرع الله إلى التمسك بشرعه.

ثالثاً- على الاستقامة على ما يحبه ويرضاه، والالتزام بأوامر الله وسنة نبيه، والابتعاد عن النواهي والمحرمات.

رابعاً- على التخلق بأخلاق الدين،والتمسك بآداب الشريعة، والسير على السلوك المستقيم.

- وما ذلك إلا لأن الله ﷻ سيتولاهم بعد نصرهم، وتفريج كروبهم، وتحقيق مآربهم، فوجب عليهم أن يعودوا إلى التمسك بدينهم، ونشر مبادئه

على أكمل وجه، عندها سيمن الله ﷻ عليهم بنعمتين هما من أعلى نعم الله على عباده:

الأولى- أن ييسر لهم طعامهم وشرابهم على أحسن حال، ويؤمن لهم جميع متطلباتهم وحاجاتهم.

الثانية- أن يفشوا الأمان بينهم والاستقرار، ولن يجدوا بعد ذلك خوفاً ولا اضطراباً، ولن يكون هناك من يؤذيهم أو يتعدى عليهم، أو يظلمهم، حيث بين ذلك الله تعالى بقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾.

اللهم أطعمنا من جوع يلازمنا، وآمنا من خوف يحيط بنا.

- عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: فضل الله قريشا بسبع خلال:

أني فيهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة فيهم، والسقاية فيهم وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [أخرجه الحاكم في المستدرك].

۞ ۞ ۞

مناجاة:

وإذا دجا ليلُ الخطوبِ وأظلمت سُبُلُ الخلاصِ وخابَ فيها الآملُ
يأتيك من ألطافهِ الفرجُ الذي لم تحتَسبهُ وأنت عنــه غافــلُ

الخاتمة

– للإمام عز الدين محمد بن عبد السلام –رحمه الله– لفتات طيبة في هذا الموضوع، ننقلها بطولها لأهميتها، قال: للمصائب والمحن فوائد تختلف باختلاف رتب الناس:

أحدها: معرفة عز الربوبية وقهرها.

الثاني: معرفة ذل العبودية وكسرها، وإليه الإشارة يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦].

اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده، وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره، لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه.

الثالثة: الإخلاص لله تعالى، إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [الأنعام: ١٧].

الرابعة: التضرع والدعاء: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: ١٢].

الخامسة: تمحيصها للذنوب والخطايا: «ولا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الهم يهمه والشوكة يشاكها إلا كفر به عن سيئاته». [أخرجه مسلم]

السادسة: ما في طيها من الفوائد الخفية: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

السابعة: إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر.

ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، كالذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وتغربوا عن أوطانهم، وتكاثر

أعداؤهم، ولم يشبع سيد الأولين من خبز مرتين، وأوذي بأنواع الأذية، وابتلي في آخر الأمر بمسيلمة وطليحة والعنسي، قال ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا، فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بِالْبَلاَءِ، وَالْفَاجِرُ كَالأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ».

أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ]

الثامنة: الرضا الموجب لرضوان الله تعالى، فإن المصائب تترل بالبر والفاجر، فمن سخطها فله السخط ومن رضيها فله الرضا.

۞ ۞ ۞

اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لوجهك الكريم، أرجو به رضاك والجنة، وأن أنفع به المؤمنين الصادقين، في هذه المحنة التي ما عرف التاريخ مثلها، بأن أعمق إيمانهم بالله ﷻ، وأزيد من ثقتهم به ﷻ، وأدلهم على الصراط المستقيم الذي ينبغي أن يتبعوه لينجوا من هذه الفتنة الشديدة التي ألمت بهم، وأبين لهم السلوك القويم الذي يجب أن يسلكوه في هذه المحنة، والمنهج الصحيح الذي يجب أن يطبقوه، لينجوا بأنفسهم وأهليهم من هول هذه الفتنة المؤلمة.

- ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].

- ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

بقلم المربي:

الدكتور محمد خير فاطمة

الفهرس

الإهداء ٣
المقدمة ٥
الوقفة الأولى: البلايا والمصائب والفتن ٧
الوقفة الثانية: الدنيا دار بلاء ١٥
الوقفة الثالثة: ما حكمة الله في بلائه ٢٥
الوقفة الرابعة: ماذا يفعل المسلم قبل نزول البلاء ٣٧
الوقفة الخامسة: ماذا يفعل المسلم إن نزل به البلاء ٤٦
الوقفة السادسة: الفتن العامة ٦٥
الوقفة السابعة: الالتجاء إلى الله في المحن ٧٣
الوقفة الثامنة: حكم الله في المحن ٨٤
الوقفة التاسعة: قانون الله في التغيير ٩٠
الوقفة العاشرة: إنسانية المسلم ٩٥
الوقفة الحادية عشرة: صنائع المعروف ١٠٠
الوقفة الثانية عشرة: الإيثار في الإسلام ١٠٩
الوقفة الثالثة عشرة: فسيلة عند المحن ١١٩
الوقفة الرابعة عشرة: حقائق البلاء ١٢٥
الوقفة الخامسة عشرة: وصية النبي ﷺ في الفتن ١٤٤
الوقفة السادسة عشرة: اليقين دواء البلايا والمصائب والفتن ١٥٧
الوقفة السابعة عشرة: التقوى دواء البلايا والمصائب والفتن ١٦٧
الوقفة الثامنة عشرة: دروس مستفادة من غزوة الأحزاب ١٧٣
الوقفة التاسعة عشرة: دروس مستفادة من سورتي الضحى والانشراح ١٨٤
الوقفة العشرون: دروس مستفادة من سورتي الفيل وقريش ٢٠٠
الخاتمة: للإمام عز الدين محمد بن عبد السلام -رحمه الله- ٢٠٣
الفهرس ٢٠٨